وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

عادات ومعتقدات
في محافظة حمص



خالد عواد الأحمد



عادات ومعتقدات

في محافظة حمص



تصميم الغلاف

خالد يزبك

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب
التراث الشعبي
مشروع جمع وحفظ التراث الشعبي
(٣٧)

عادات ومعتقدات

في محافظة حمص

خالد عواد الأحمد

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١١م



عادات ومعتقدات في محافظة حمص / خالد عواد الأحمد .- دمـــشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١ .- ١٦٠ ص ؛ ٢٤ سم.

(مشروع جمع وحفظ التراث الشعبي؛ ٣٧)

١- ٣٩٠,٠٠٩٥٦١٢١ أ ح م ع ٢- العنوان

٣- الأحمد ٤- السلسلة

مكتبة الأسد

مقدمة الكتاب

وُجدت المعتقدات الشعبية عند مختلف الأمم والشعوب ولدى كل الناس ريفيين كانوا أم حضريين، أميين أم مثقفين ولكن بدرجات متفاوتة، وهناك ظواهر ثقافية متشابهة في مختلف أنحاء العالم يُطلق عليها اسم «النظائر الثقافية» وهي ترجع إلى عمليات ثقافية كالتقارب والانتشار، فنجد الأرواح والشياطين والقديسين عند معظم الشعوب تحت أسماء مختلفة ولكن طبيعتها وماهيتها واحدة أو متشابهة.

وتكتسب المعتقدات الشعبية في كل مجتمع أهمية خاصة باعتبارها أعراف غير مكتوبة تؤمن بها الجماعة بإرادتها، لقناعتها التامة بصدقها.

وقد ترسّخت معتقدات الأفراد والجماعات على مدى العقود والقرون بسبب تكرارها في السلوكيات والأفكار حتى باتت أشبه بالقواعد العامة التي ترعى النظام الاجتماعي وتضبط إيقاعه، ومنذ وُجد الإنسان على الأرض بدأ يكيّف حياته على المعتقدات ، يراقب ويلاحظ الظواهر الطبيعية ويحاول إيجاد تفسير لها، ومع مرور مئات بل آلاف السنين استطاع الإنسان العاقل أن يرسم رؤيته لهذه الحياة، ولم يكن ابن منطقتنا - شرق المتوسط - بعيداً عن هذه التطورات، ومع حدوث ظواهر لم يألفها الإنسان، أخذ يراقب نتائجها وتكوّنت لديه خبرة وتجربة في الحياة وظفها في خدمة معتقداته النابعة من بيئته وزمانه ومدى تطوره ورؤيته للأمور غير المعزولة عن وضعه الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والنفسي، فهو يتفاعل بالربيع والصيف لتوفر الخضرة

والفواكه وجمال الطبيعة، ويتشاءم من الظواهر التي عجز العقل البشري عن حل لغزها فربطها في بعض الأحيان بالمصائب والكوارث كالنجم المذنّب والخسوف والكسوف وغيرها من الظواهر الطبيعية.

وقد تبدو بعض المعتقدات الشعبية غريبة وشاذة، ولكن الأغرب من ذلك أن بعضها ما زال شائعاً ومترسّخاً في عقول أكثر الناس حظاً من العلم والإدراك وخاصة ما يتعلق منها بالتفاؤل وبالتشاؤم وهما ظاهرتان تعودان إلى أزمان سحيقة من التاريخ، إذ «كان للكلدانيين الذين سكنوا منطقة وادي الرافدين وفي مناطق أخرى من الشرق شهرة لا تُبارى في معرفة أساليب «التطيّر» عن طريق قراءة رئة الطيور وأكبادها وأحشائها، وكانوا يتشاءمون ويتطيّرون من المرأة والدار والفرس وعتبات البيوت ومداخلها والغراب الأسود، وحتى العُطاس والسعال كانوا يتشاءمون منهما»[١].

وقد عرف العرب هذه الظاهرة وكانت لهم طقوسهم الخاصة في التطيّر من بعض الكائنات والشهور والوقائع والأشخاص قبل الإسلام وبعده فقد روى البخاري ومسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «**الشُّؤْمُ فِي الْمَرْأَةِ وَالدَّارِ وَالْفَرَسِ**». وروى البخاري ومسلم عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ ذَكَرُوا الشُّؤْمَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : «**إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ فَفِي الدَّارِ وَالْمَرْأَةِ وَالْفَرَسِ**».

وذكر ابن سينا في كتابه (القانون في الطب) - باب الطيرة - الحديث السابق برواية أخرى: (لا عدوى ولا طيرة ولا شؤم إلا في ثلاث في المرأة والدار والدابة) وقيل إن شؤم الدار في ضيقها وسوء جارها وشؤم المرأة ألا تلد، وشؤم الفرس ألا يُزدى عليها).

---

(١) موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، شوقي عبد الحكيم، مكتبة مدبولي، دون ذكر رقم وتاريخ الطبعة .

وفي لسان العرب مادة (شأم) قال ابن منظور: (وفي الحديث إن كان الشؤم في ثلاث معناه إن كان فيما تُكره عاقبته ويُخاف ففي هذه الثلاث، وتخصيصه لها لأن الإسلام أبطل مذهب العرب في التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء ونحوها) [١] وجاء في معجم المنجد للغة والأعلام (شأم – شأماً) القوم وعليهم جرّ عليهم الشؤم فهو شائم شؤم شأمة واستشأم به تطير وهو ضد اليُمن والفأل والبركة"[٢]

وقبل أن نبدأ في الكتابة عن العادات والمعتقدات السائدة في حمص يجدر بنا أن نعرِّف كلاً منهما فالعادة هي ما اعتاد الفرد أو الجماعة فعلها في اليوم والليلة أوفي المناسبات الخاصة. أما المعتقد فهو ما يتمسك به الفرد أو الجماعة ويعتقد في نفسه صحته فيسير عليه ويصبح جزءاً من ممارسته اليومية أو في المناسبات الخاصة بالمعتقد. والفرق بينهما هو أن المعتقد ينطلق من ضمير الفرد وأما العادة فهي خاصة بالسلوك.

والعادة والمعتقد بعد أن يتمكنا من الفرد أو الجماعة يصبحان جزءاً من كيان الإنسان أو الجماعة وليس من السهل تركهما، ومثال على ذلك عندما جاء الإسلام العزيز بميزان العقل والحكمة وتعارض مع ما اعتاده العرب في الجاهلية من عبادة الأصنام وغير ذلك من معتقدات وعقائد كان من الصعب جداً عليهم ترك هذه المعتقدات والتحول إلى معتقد جديد، وهذا ما أخبر به القرآن الكريم عندما قالوا للنبي r **(قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون)** (الآية ٧٤ - سورة الشعراء).

* * *

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، ١٥ مجلداً، بيروت (١٩٥٥م – ١٩٥٦م).

(٢) المنجد في اللغة والإعلام.


الهيئة العامة
السورية للكتاب

الباب الأول

عادات شائعة

في محافظة حمص



الفصل الأول

تقاليد العرس الحمصي

يرى علماء الاجتماع أن كل أمة من الأمم تكاد تكتب فنها الشعبي بلون ترابها، وذلك للتأكيد على أهمية الخصائص البيئية لأي بلد في التأثير على تراثه الشعبي الذي هو بطبيعة الحال جزء من تاريخه العام، ومثل هذا القول ينطبق على التراث الشعبي في حمص في مجالاته كافة: الفنون القولية وأنماط التعامل الاجتماعي التي تتجلى في القيم والمناسبات الاجتماعية وفي العادات والتقاليد، كما تتجلى أيضاً في المأكل والملبس وأدوات القتال ووسائل الزينة.

وبرغم رياح التطور التي طالت كل مرافق الحياة تقريباً لا يزال بعض من هذه التقاليد والعادات مختزناً في عمق الذاكرة الشعبية والوجدان الجمعي للناس لم تَطلْها صرعات التغيير ولم تؤثر عليها أشكال العصرنة الهجينة والغريبة عن هويتنا وموروثنا الاجتماعي، وإذا كانت عادات وتقاليد العرس تختلف من منطقة إلى أخرى في سورية وفي بعض التفاصيل التي تركز عليها جهة دون أخرى فإن هذا الاختلاف والتنوع في الطقوس الاحتفالية بليلة العمر في حمص لا يعني عدم توحُّدها وتشابهها في المراحل والمراسم. وتشكل هذه المناسبة السعيدة في المجتمع الحمصي والريف على حدٍ سواء حدثاً متميزاً يسمح باللقاء والتوحد العائلي والتعارف بين الذين لا ينتمون إلى العائلة نفسها إضافة إلى أنه فرصة لإظهار المهارات في الرقص والغناء والمشاركة في التعبير عن الفرح والحبور.

وإذا كانت تقاليد الاحتفال بالعرس في كلٍ من القرية والمدينة لازالت محافظة على جزء كبير من صورها وأشكالها إلا أن مظاهر عصرية كثيرة دخلت إليهـــا إن كان في زينة العروس وجهازها أو في أشـــكال الاحتفال ومفرداته، فالماشطة التي كانت تقوم بتزيين العروس فترجّل شعرها وتزيّنها بأصناف الحلي والحلل والشكول استعيض عنها بصالونات الزينة النسائية ومراكز التجميل الحديثة التي تجعل من "المكنسة ست النسا" كما يقول المثل الشعبي، كما أَخلتْ الخاطبة التي كانت تدور من بيت إلى بيت لتوفيق الرؤوس على مخدة الحلال دورَها للكمبيوتر، أما (الأيمة) و(البلاّنة) فقد ذهبتا إلى غير رجعة وحلت محلهما مراكز الساونا والجاكوزي ونوادي الرشاقة.



جهاز الكسوة

كانت فتيات حمص في الماضي محجوبات عن الشبان وكان لابد للشاب من أن يكمل دينه - حسب التعبير الشعبي- باختيار شريكة حياته ولذلك وجدت مهنة الخاطبة التي كانت تلجُ بيوت الفتيات اللاتي تعرفهن أو تسمع عنهن من ذوات الصيت الحسن والأخلاق الرصينة وبعد أن تنظر ملياً إلى كل واحدة منهن وتراقب طراز حياتهن وأشغالهن ومهارتهن في تدبير المنزل تختار منهن من تراها أجمل خلقة وأكمل أدباً ومعرفة من سواها فتعود وتصفها للخطيب فإذا راقت له تدل أمه على عنوانها، ولم يكن الشاب يرى الفتاة التي يرغب الاقتران بها بل يكتفي بوصف الخاطبة من حيث لون عينيها وشكل وجهها وطولها وميلها للنظافة ومهاراتها في الطبخ ، وعلى الوصف يتوكل الرجل على الله ويعقد العزم على إتمام دينه ، وتتقاضى الخاطبة أجراً متفقاً عليه لقاء هذا العمل من أهل العريس على الأغلب، وبعد طلب اليد أو(الطُلبة) كما يدعوها أهل الريف يذهب العريس وأسرته لزيارة العروس، ولبحث ترتيبات العرس وشراء جهاز العروس (الكسوة) ويجري ترتيب زيارة خاصة للمدينة لشراء مستلزمات العرس، والأقمشة والحُليّ الفضية والحنة والهدايا الخاصة لأفراد أسرتها. وعند رجوع النساء من سوق المدينة يوم الكسوة وقُبيل دخول القرية، يحملن على رؤوسهن جهاز العروس موضوعاً على أطباق من القش، ويدخلن القرية وهنَّ يغنين أغانٍ وأهازيج خاصة بيوم الكسوة . وتصعد قريبات العريس على الأسطح في القرية، ويجبْنَهنَّ بأغانٍ تمدح العريس وأسرته وتكون الأغاني أيضاً دعوة لباقي أهل القرية للتجمع

في دار العريس والانضمام إلى احتفال ليلة الكسوة، والأغاني التي تُردد في مثل هذه المناسبات تصف حياة القرية اليومية وأيامها وعلاقاتها، مع تعليقات على الأزياء والأقمشة والتطريز وأغطية الرأس والمصاغ، وسط أجواء من الرقص القروي المعروف بالدبكة الذي ترافقه آلات موسيقية شعبية مثل المجوز والطبل والشبّابة.



ولا تكاد تختلف مراحل العرس في حمص بين المدينة والريف إلا في بعض التفاصيل الصغيرة التي تفرضها خصوصية البيئة والمكان، ففي المدينة وبعد موافقة أهل العروس وقراءة الفاتحة ودفع المهر المتفق عليه تبدأ رحلة إتمام الزواج بذهاب والدة العروس وأخواتها أو بعض قريباتها إلى السوق لتحضير الجهاز الذي يمثل الشغل الشاغل لعائلة العروس منذ لحظة إعلان خطبتها فالعروس الحمصية يجب أن تحمل كل ما يلزم إلى بيت زوجها من ناحية اللباس وأدوات المطبخ وبعض أغراض العريس الخاصة تعبيراً عن

مشاركتها له في تجهيز البيت الذي سيصبح بيتها أيضاً وكذلك رغبتها في مشاركته همومه ومتاعبه وأفراحه ومسراته. وقد جرت العادة في الماضي أن يُعرض الجهاز في بيت والد العروس. ويُدعى أهل العريس والأقرباء والأصدقاء لاستعراضه في حفل يقام لهم ثم توضع ملابس العروس والأمتعة الأخرى في صناديق مزخرفة بالنقوش وتُحمل في شوارع المدينة أو القرية أما الأمتعة الأخرى من فرش ووسادات وأغطية ومطرزات فكانت تُحمل على الأكف أو الأكتاف يحملها شباب يلبسون أحسن ثيابهم ويُنقل الجهاز من بيت العروس إلى بيت الزوج في موكب تتقدمه الموسيقى الشعبية ويحف بالجهاز شباب من أخوة الزوج وأبناء عمومته وأصدقائه.



ومن الهناهين التي ترددها النساء في هذا الموكب:

ها وسبع بقج بقجتك

ها والثامنة بالصندوق

ها يخلي شوارب أبوك

ها يا اللي ما عازك لمخلوق

لي لي لي ليش

ها قبقابك إجا من سير

ها وفستانك جناح الطير

ها لا جهازك عيري

ها ولا مهرك إجا بالدين

لي لي لي ليش

ويتعمد المحتفلون أن يمر الموكب من أسواق الأحياء المشهورة وكلما مروا بحي وقف الموكب عند مقهى الحي أو ساحته وعُزفت الموسيقى وهكذا حتى يصل الموكب إلى بيت الزوج فتتلقاه النساء بالزغاريد، ويشاركنهن في ذلك نساء الحي اللائي جئن للفرجة، فالحي كله في فرح وحبور ويُعرض الجهاز في غرفة مخصوصة للعروسين ويُعاد عرضه على المدعوات. وقد ظل نقل الجهاز يجري في احتفال علني تشهده الأحياء التي يمر فيها ويُعرض على الناس إلى عهد قريب ثم أخذ يتلاشى مع كثير من عادات الزواج وتقاليده الشعبية القديمة.

حمّام العروس

من التقاليد التراثية المرتبطة بالعرس الحمصي حمّام العروس إذ اعتادت قريبات العروس وصديقاتها إحضارها منذ الساعات الأولى ليوم زفافها وتقوم مالكة الحمام بإخلائه لهن وتعلق الورود والمناديل الملونة ابتهاجاً بهن ثم تبدأ عاملة في الحمام تدعى (الأيمة) بتجهيز العروس والعناية بها فتقوم بنقع رأسها بالترابة الحلبية (البيلونة) وتمشط شعرها بالصابون (الطرابلسي) وتطيِّبه بماء (البيلون) وترجِّله بالمشط العظمي وتتعالى الزغاريد والهناهين الخاصة بذلك.



ومنها الهنهونة التالية :

ها قيمي براسك ، ولا تحني بقامتك

ها كل البنيات إجو تحت طاعتك

ها لَمِنْ جلوكِ ، ورخّوا سالف التركي

ها نحن الثلاثة وقعنا بمحبتك .

لي لي لي ليش

كما كانت تقام احتفالية مماثلة للعريس في الحمام تسمى (التلبيسة) فيأتي أقارب العريس وأصدقاؤه الخُلَّص ومعهم العريس في الوقت المخصص للرجال ليلاً فيغتسلون بين المزاح والتعليق والمداعبة ويمضون سهرتهم على هذا الشكل مردّدين الأغاني الشعبية والأهازيج ومنها :

فصَّلت لك توب العرس

ومبارك العرس يا رايح تتجوّز

فصَّلت لك ثوب

لا قصرً ولا عوز

ومبارك العرس يا رايح تتجوّز

وعندما يبدأ المحتفلون بالخروج يتأخر أحدهم ليدفع (وفا الحمام) أي أجرته إلى الحمامي ويُعد ذلك (حملاناً) للعريس من قبل الدافع.

وفي اليوم التالي يجري احتفال آخر يسمى (ليلة الحنة) وفي بعض أنحاء المدينـــة كان العريس هو الذي يُحضر الحنـــاء وعندما يستلمه أهل العروس تنطلق الزغاريد :

ها جيناكي الأحمر جرح كفك

ها يا بنت الشيخ يا بنت الدراويشي

ها ولو قدر الله حكمي وصرت مثلك

ها لاعقُد عقادي وحط النقد من كيسي

لي لي لي ليش

وفي ليلة الحنة تُصبغ يدا العروس بالحناء وتتولى امرأة مختصة بذلك فتقوم بنقش كفيها وقدميها من الظاهر والباطن برموز وأشكال هندسية ونباتية. وتشترك الصبايا في صبغ أيديهن أيضاً إقتداءاً بالعروس وبعد الانتهاء من طقوس الحنة تنطلق الزغاريد ابتهاجاً وفرحاً بتلك الليلة:

ها يا عروسة ريتها مباركة الحنة

ها يللي سبيتي الحواري الساكنة الجنة

ها يللي سبيتي الحواري في بها حسنك

ها وجبين مثل البدر يا ناس جننا



أو الأهزوجة التالية:

ها يا عروستنا وقفتك وقفة البَنَّا

ها النقش بكفوفك صفَّقنا له غنى

ها حط القدم عالقدم سمعنا له رنة

ها وبوجودك البيت راح يصير جنة

لي لي لي ليش



ليلة الدخلة

يجري العرس الذي يسمى أيضاً (ليلة الدخلة) أو(الزفة) في بيت والد الزوج أو في منزل أحد أقربائه أو أصدقائه إذا كان المنزل لا يسع المدعوات من النساء وتشارك في الأهازيج والغناء أخوات العريس وبنات عمه وحين تأتي العروس مجلَّلة بالعباءة يستقبلها أهل العريس وأقرباؤه بالزغاريد والهناهين ومنها الهنهونة التالية:

قوموا من الـــدرب لتمـــرق الـــستات

قوموا من الـــدرب لتمـــرق أميـــرتكم

ها بنت شيخ العرب جـــاي تـــشرفكم

لي لي لـــي لـــيش

فيجيب أهل العريس:

أهلاً وسـهلاً فـيكم   يـا ضـيوف اعـزاز
انتو عزازي وجيتـو   مـن بـلاد عـزاز
أحـلا مـن الـشهد أحـلا مـن طيـور البـاز
أحلا مـن القـرِشْ   لو كان صاحبو معتاز

وتعود النساء لتزغرد وتردد :

يا دارنا دقي والعبي حربي
فيك ثريا وفيك مسكن الغربي
فيك (اسم العريس) يتنقل بمحرمته
خصرو رقيق وزنارو حرير وردي

وإذا دخل مع العريس والده تهزج النساء له :

أبو(فلان) ريتك دايم
يا راعي الحشايم[1]
ريتك تعيش وتسلم
وتلتم عندك اللمايم[2]

ويردّدن للعريس الأهزوجة التالية :

عريس عريس لا تندم على مالك
حواجب عروستك خط لقلامك
ها حواجب عروستك قوس محنية
ها بتسوى بنات حارتك متل ما هيه
لي لي لي ليش

---

(١) الحشايم: أي كثرة الخدم والحشم.
(٢) اللمايم: أناس كثيرون.

أو يقلن أيضاً :

ها عريسنا لا تندم على مالك

ها بيروح المال وست الحسن تبقى لك

ها بطْلُب من رب السما يجيبها لدارك

لي لي لي ليش

وقد جرت العادة أن ينثر الناس عند مرور موكب العروسين الزبيب والتين تفاؤلاً بمستقبل حسن لذلك الزواج كما يُنثر الملح والشعير على رؤوس الحاضرين أثناء زفة العريس.



ومن المظاهر الاحتفالية التي ارتبطت بالعرس الحمصي منذ عشرات السنين ولا زالت «العراضة الحمصية» التي تبدأ باجتماع الرجال في أحد البيوت من أقارب العريس (المعرِّس) فيشتركون في إلباسه ثياب العرس وسط

الأهازيج والتعبيرات الفكاهية المرحة وربما لجأ بعضهم إلى وخزه بدبوس كنوع من الدعابة، وتسمى هذه المراسم «التلبيسة» ثم يسيرون في موكب حافل يُعرف بالعراضة وينتظمون فيه متماسكي الأيدي متقابلي الوجوه في صفين متوازيين يلتحم طرفاهما من جهة – وهذا صدر العراضة – وإذا كان الحفل لعريس أو محتفى به فهذا مكانه، ويبقى الطرفان الآخران سائبين ينضم إليهما من يدرك العراضة في أثناء السير وبين الصفين يَخْطُر الشباب خِفَافاً نشيطين يلوَّحون بالسيوف ويهتفون بالأهازيج والبقية يرددون أهازيجهم ويتجاوبون مع نغماتها المختلفة، وتتوقف العراضة بين الفينة والفينة أو تتمهل ريثما يقدم السبّاقة – لاعبي السيف والترس – جولة من المبارزة على دقات الطبل وهي تبدأ بالتبختر والاختيال وتنتقل إلى المناوشة والصيال، حتى إذا ارتفعت دقات الطبل إلى (الحروبي) التحم البطلان مثل جبلين – كما تقول القصص الشعبية وتقارعا بالسيوف وتساقيا كؤوس الحتوف – وقبل أن يختلفا بالضربة التي تشق الخصم من رأسه إلى تكة لباسه – بشكل رمزي طبعاً – يَثبُ شيخ الشباب منادياً: واصـــ.... ي...ل وتُحسم المعركة بينهما صلحاً، ومن المرددات الشعبية التي تقال في مثل هذه اللوحات الشعبية :

محمد زين. ذكره زين

محمد يا كحيل العين

محمد خاطبوا ربو

وكانت ليلة الاثنين

وانشق القمر نصفين

من هيبة رسول الله

وكذلك:

سيروا على ما قدر الله

ما نتكل إلا على الله

الله يا نعم الوكيل

وعليك يا نبينا (فترد المجموعة: صلينا)

يا شافع فينا (فترد المجموعة: صلينا)

هيك القبلة (فترد المجموعة: صلينا)

يا الله صلّوا (فترد المجموعة: صلينا)

والصلاة والصوم علّوا (فترد المجموعة: صلينا)

وتسير العراضة في الشوارع حتى تصل بيت العروس، وهناك يُطرق الباب عدة طرقات إشارة إلى مجيء العريس، ولكي يسمحوا له بالدخول. يدخل العريس ومعه والده، وأحياناً بعض أخوته ويُرش الملح على الحضور من أجل منع العيون من حسده، وصار الناس بعد ذلك يرُشون الملبس والنقود والسكاكر



و«من العادات الطريفة المتبعة في العرس الحمصي أن تدوس العروس على رجل العريس لكي تؤكد الاعتقاد السائد بأن العريس سيبقى تحت سيطرتها ويسمع كلامها طوال عمره ولهذا يتسابق العروسان على هذا الفعل، لأن السبَّاق سيكون الغالب وصاحب الحظ السعيد»[١]

و«من الطقوس الإعتقادية التي كانت شائعة في حمص خميرة العروس حيث تعمد العروس يوم زفافها إلى إلصاق قطعة عجين على باب البيت، وتفسير ذلك أن الخميرة هي آخر ما يبقى من العجين و بها تستمر هذه المادة المقدسة، وهي تفعل ذلك لتصبح كهذه الخميرة سبباً في استمرار الحياة والبقاء وزيادة الخيرات، وتُلصق العروس معها في بيت الزوجية إلى الأبد» [٢]

وفي أحيان أخرى جرت العادة أن تعلق عائلة العريس قطعة من العجين مع عرق أخضر فوق باب غرفة العروسين وعندما تصل العروس إلى الباب يأتي العريس فيغمس يده اليمنى ويضرب بها يد العروس ثلاث ضربات، وأما فيما يختص بالمرأة التي تعجن العجينة التي توضع فوق باب غرفة العريس فمن الضروري أن يكون زوجها حياً يُرزق .

ويرى الباحثان نعيم الزهراوي ومحمود السباعي أن العروس الحمصية «كانت فيما مضى تنتعل قبقاباً مطعّماً بالعظم تتصل فردتاه بخيط يربط بينهما حتى لا تستعجل في السير إلى منزل العريس وتسير خطوة خطوة» [٣].

---

(١) ملامح الدراما في التراث الشعبي العربي، هيثم يحيى الخواجة، دار مكتبة الحياة- مؤسسة الخليل التجارية، بيروت لبنان ط١ ١٩٩٧ ص ٥٥.

(٢) دراسة بعنوان (الزواج والحمل والولادة في المعتقدات الشعبية الشامية) بقلم حمزة جميل جانم ، مجلة الفن والتراث الشعبي، العدد السابع عشر، السنة التاسعة، حزيران ٢٠٠٤ م

(٣) حمص دراسة وثائقية من خروج إبراهيم باشا وحتى خروج الأتراك العثمانيين، تأليف محمود السباعي ونعيم الزهراوي، الناشر مطبعة الروضة حمص ط١/ ٢٠٠٣.

ومن الطقوس الفولكلورية المرتبطة بالعرس الحمصي ما يسمى «المصدّر الحمصي» الذي قدمته فرقة نادي الخيام الشعبية لسنوات طويلة ولعل مدينة حمص تنفرد بهذا اللون الشعبي من الغناء دون غيرها من المدن السورية وإن كانت المساجلات والمباريات الزجلية المشابهة لها – إلى حد ما – معروفة ومشهورة في بلاد الشام حيث يُنصب في بناء الدار وفي صدره منصة شبه مسرح صغير – للمنشدين الذين يجلسون جثياً على الركب في صفين متواجهين، ويبدأ أفراد الصفين بالإنشاد هوناً، ويجيبه الثاني بمثله مضيفاً أو معارضاً ومفنِّــداً ، ويستمر الصفان في تبادل الإنشاد، وتتدرج النغمات شدة وارتفاعاً يرافقها تصفيق إيقاعي ويتطاول المنشدون في مجالسهم، ويتمايلون والناقر على الدربكة يساير نغماتهم وحركاتهم، «ومن أحد فصول المصدر هذه المناظرة الغنائية بين الفريقين حول البيضاوات والسمراوات، كل فريق يؤيد وينحاز إلى فئة منهن فيبدأ الأول بالافتتاحية:

واسمعوا قول المعنى

عالسمر والبيض غنى

واسمعوا قولي وقولو

واسم الله حُوْلي وحُولُو

ثم يبدأ الفريق الثاني بعرض رأيه أن السمراء أفضل من البيضاء وتمتاز عليها ويقدم الدليل الساطع والبرهان الناصع على صحة ما ذهب إليه:

والسمرا كبة بصينية

يتهادوها الأفندية

والبيضا شرقة لبنية

عالمزابل كبُّو عنا

فالسمراء طيبة ولذيذة كما هي أكلة (الكبة بصينية) الفاخرة التي تُقدم في الولائم والحفلات وتتهاداها البيوتات الراقية أما البيضاء فلا تعدو أن تكون

«سؤراً» – شرقة- من أكلة اللبنية المطبوخة من الرز واللبن الزبادي دون أي دسم أو مطيبات! وهنا يثور الفريق الآخر ويرغي ويزبد ويردد بالأسلوب الفكاهي نفسه:

والبيضا رز بحليب

كل ما بيبرد أكله يطيب

والسمرا قرمة زبيب

عالمزابل كبُّو عنا

ثم تتوالى المرافعات الزجلية الغنائية بين الفريقين إلى أن تنتهي بتعادل الفريقين»[١] .

وفي صباح اليوم التالي يقوم أهل العريس بواجبهم في تقديم طعام الإفطار والغداء وكثيراً ما يتهافت الطبالون للاحتفال بالعرس وأخذ نصيبهم من النقود من أهل العريس بعد إطراء مبالغ فيه للعريس وأهله ونسبه

و«في عصر اليوم التالي يغادر أهل العروس أي المقربات جداً كالأم والجدة والخالة والعمة منزل أهل العريس وبعضهن يهزجن قبل المغادرة:

نحنا ومين يقدر يخاصمنا

يا لابسين الخواتم بخناصرنا

سألت رب السما العالي ينصرنا

وبين العمائم تسلمي عمايمنا» [٢]

---

(١) دراسة بعنوان (المردّدات والأهازيج الشعبية، بقلم أحمد صدوق صافي، مجلة الفيصل، العدد ٢٧١ / شباط ٢٠٠٤ .

(٢) ملامح الدراما في التراث الشعبي، تأليف هيثم يحيى الخواجة، الناشر دار مكتبة الحياة، بيروت ط١ ١٩٩٧ - ص ٥٩.

ولا تنسى قريبات العروس أن يُوصِّين أهل العريس بابنتهن فهي أمانة في أعناقهم ثم يهزجن:

على الهادي على الهادي	**يـــــا حمــــــام الـــــوادي**
ســــــيروا ســـــيَّركم الله	**علـــــى قلـــــوب الأعــــادي**

ويهزجن أيضاً:

الحمد لله على الشر اللي تعدانا

لأفدي بالمال ريت المال يفدانا

والحمد لله اللي تخلت عنا منايانا

وكاس اللي شربنا سقيناه لعدانا

ومن التقاليد المعروفة في حمص ما يسمى يوم الثالث حيث يأتي أهل العروس وأخوالها وأعمامها فيزورونها ويقدمون لها (النقوط) وفي نهاية الأسبوع تزور العروس بيت أهلها من الصباح حتى المساء وتدعى هذه الزيارة (رَدّة رجل) حيث يُحتفى بها وبزوجها في وليمة يتم فيها دعوة المقربين من أهل العروس.

* * *

الفصل الثاني
احتفال ختمة
القرآن الكريم في حمص

في مطلع القرن الماضي كانت مؤسسات التعليم في البلدان العربية والإسلامية كافة ثلاثاً: الكتاتيب والمدارس الشرعية ومدارس التعليم العام النظامية التي بدأت بالانتشار في أول القرن الماضي وما زالت في تطور دائم على المستويات كافة العلمية والتقنية وأساليب التعليم وكذلك حلقات العلوم الشرعية التي اقتصرت الآن على حلقات تُقام في المساجد لتحفيظ القرآن الكريم وتجويده وتفسيره، أما «الكتاتيب» فقد انقضى عهدها وأصبحت مجرد شريط من الذكريات في آلة الزمن الصماء لا يتمتع باسترجاعه في الذاكرة إلا أجدادنا الذين عاشوا تلك الذكريات لحظة بلحظة، ومع ذلك فمن الطرافة أن يتذكر الشاب الجامعي اليوم وهو في مدرجات المحاضرات أو في قاعة المختبرات كيف كان جده أو أبوه يجلس على حصير الكتّاب يقرأ في «حرفيته» أو مصحفه وهو يطوِّح جذعه ورأسه يمنة ويسرة فتتجاوب مع حركاته شرابة طربوشه الأحمر القاني .

كانت الكتاتيب تُقام في غرف ملحقة بالمساجد ولاسيما مساجد الأحياء في الزوايا أو في بعض التكايا، أو في غرف يفرزها صاحب الكتاب (الشيخ) في داره، وقد يكون صاحب هذا الكتاب امرأة (شيخة) فعندئذٍ لا يكون الكتاب إلا في دارها، وكانت غرف الكتاتيب تُفرش بالحصر البلدية السميكة

المصنوعة من «جرود النخيل» تعلوها البسط الصوفية في الشتاء وتبقى عارية في الصيف، يجلس عليها التلاميذ متربعين حيال جدرانها الأربعة، بعضهم يسندون إليها ظهورهم وآخرون يجلسون أمامهم مواجهة، وغالباً ما يكون الأولون معلمين مقرئين للآخرين، فإذا بدأت القراءة أخذوا يطوحون جذوعهم ورؤوسهم إلى الأمام والوراء، وراحت شراشيب طرابيشهم تتراقص على وتيرة اهتزاز الرؤوس، فإذا نحن أمام مشهد يأخذ بمجامع القلوب، وإذا ما أمعنوا في القراءة تداخلت أصواتهم المتباينة المرتفعة محدثة ضجة يعرف من يسمعها من بعيد أنه بإزاء كُتَّاب، وهناك ثلة من الأطفال لا تزيد أعمارهم على أربع أو خمس سنوات يُحشرون في زاوية الكتاب أو يُجمعون في وسطه لا عمل لهم إلا العبث واللعب ذلك أنهم لم يُرسلوا للتعليم، بل للتخلص من مشاكلهم وضوضائهم في المنازل، و«كان يُطلق على هؤلاء الصغار لقب «زرابة» تشبيهاً لهم بصغار الماعز «السخال» التي كان عربان البادية يحجزونها في الزريبة حتى لا تضايق أمهاتها في المراعي»[١] وكان شيخ الكتاب يقتعد دكة خشبية ترتفع عن الأرض قليلاً عليها خشبة لجلوس الشيخ ووراءه وسادة يريح إليها ظهره أحياناً، وإلى يمينه صندوق خشبي يضم الأجزاء والحرفيات وأطباق الورق وما إلى ذلك ، وعلى سطحه عدة الكتابة وبري الأقلام، فثمة الدواة الخزفية ذات الليقة (وهي صوفة أو ضمة من خيوط توضع في الدواة فتشرب الحبر، ومنها يمد القلم وهي مملوءة بالحبر الأسود اللماع المصنوع من (الهباب) «وهو يُستخرج من دخان الحطب المتراكم داخل أنابيب المداخن» والصمغ العربي وبجانبه قلم القصب والمرملة التي يرش من ثقوبها الرمل الأحمر- المقطوف على الكتابة لتجف وهناك «المقطّ» المصنوع من قطعة عاج مصقولة على هيئة نصل سكين يبري بالأول القصبة ويشق رأسها، ثم يقطع على «المقط».

---

(١) على جناح الذكرى، تأليف رضا صافي، وزارة الثقافة / دمشق ط ١ ١٩٨٦.



وكانت الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم وهي جزء عم – تبارك – قد سمع – الذاريات – تُجمع منفردة كل جزء في كراسة مستقلة فإذا أتمها التلميذ اقتنى مصحفاً وتابع القراءة فيه حتى يبلغ سورة البقرة وهي أول سورة فيه بعد الفاتحة فإذا أتمها فقد ختم القرآن الكريم وأصبح مرشحاً لحفلة الختم، وكان لحفلة الختم في حمص تقاليد خاصة، حيث يعلن الشيخ أن اليوم التالي هو موعد ختم فلان ومعنى ذلك أن الدراسة في الكتّاب معطلة، وأن على التلاميذ أن يرتدوا جديد الثياب أو نظيفها، فإذا كان صباح الغد واجتمع التلاميذ أقبل الشيخ وجلس على تخته متربِّعاً وجيء بالتلميذ المحتفى به يقوده عريف الكتاب فيجثو أمام المسند المقابل للتخت، والعريف قائم وراءه وسائر التلاميذ واقفون هادئون ويمد الشيخ يده إلى المصحف الموضوع على المسند يفتح على سورتي الفاتحة والبقرة في أوله، ويشير إلى التلميذ الجاثي أمامه: «بسم الله» فيتعوذ هذا ويبسمل ويبدأ بقراءة الفاتحة حتى إذا بلغ نهايتها «ولا الضالين» قال التلاميذ بصوت واحد موزون: آمين ثم ينتقل إلى تلاوة سورة البقرة فإذا وصل (ختم الله على قلوبهم) خطف أحد رفاقه الطاقية التي يعتمرها وركض بها إلى أهله مبشراً إياهم بأن ابنهم قد ختم القرآن الكريم وهنا تزغرد الأم وتملأ طاقية الطفل الذي بشرها نُقلاً وحلوى ويمسك العريف

بإذني القارئ ويشدهما إلى أعلى فيصفق التلاميذ هاتفين: (هي. ي، ي) وينهض التلميذ فيقبل يد شيخه ويسرع العريف فيأخذ بيديه وراء ظهره ويشدهما بمنديل (محرمة) وغالباً ما يكون هذا المنديل مهيأ في جيب الطفل الذي ختم القرآن نفسه، ويكون التلاميذ قد اصطفوا مثنى مثنى بإشراف عرفاء آخرين.. فيقوده عريفه إلى المقدمة ليس أمامه إلا تلميذ يحمل على رأسه مصحفاً موضوعاً على حامل يُدعى (كرسي العاج) مجلل بقطيفة مطرزة بخيوط القصب، ويسير التلميذ وزملاؤه والشيخ من ورائهم حتى يصلوا إلى منزل ولي التلميذ وهم يرددون «الصريفة» التي تقول:

ســــــلام ســــــلام	**ســـــــلام ســـــــلام**
ســــــلامي علــــــيكم	**فـــــــــردوا الـــــــسلام**

وهنا يقوم ولي التلميذ ووالدته بتوزيع حبات الملبس على الأطفال، أما الشيخ فيتلقى «خلعة» عبارة عن جبة جديدة أو هدايا زاهية مع بعض المال حسب المقدرة المالية لدى والد التلميذ. ويتلقى الأهل التهاني في ختم القرآن الذي كان مناسبة هامة بالنسبة للأسرة لا تقل أهمية عن مناسبة زواج أحد أبنائها أو قدوم مولود جديد



*　　*　　*

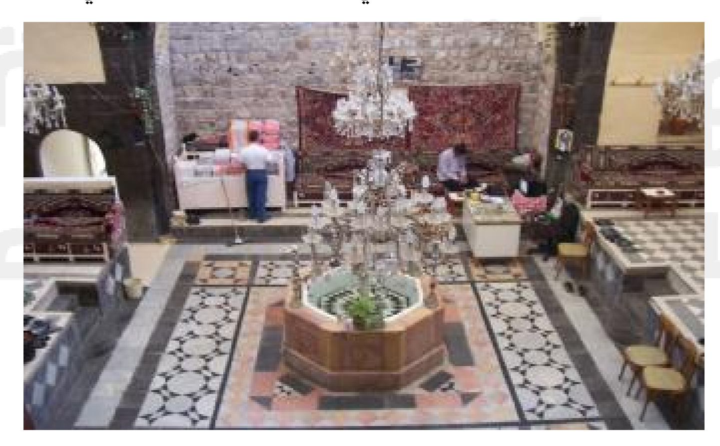
الفصل الثالث

طقوس الحمامات الشعبية في حمص

تبوأت حمامات السوق الشعبية مكانة خاصة في المجتمع السوري منذ أقدم العصور وكانت مدن بلاد الشام زاخرة بالحمامات التي اشتملت على ثلاثة أقسام هي البارد و الساخن والفاتر إلى جانب العديد من الغرف المعدة لخلع الملابس والاستراحة والمستودعات وكانت المياه تسخن بطريقة إيقاد النار تحت أرض البناء المعد لتسخين المياه ومن ثم يتم توزيع المياه في قساطل قرميدية أو إسمنتية داخل جدران الحمامات.

وقبل التعرف على طقوس وعادات الاستحمام يجدر بنا التعرف على جوانب من تاريخ الحمامات الشعبية في حمص.

شيدت في مدينة حمص خلال العهود المملوكية والأيوبية والعثمانية العديد من الحمامات وفق الطراز الكلاسيكي للحمامات الشرقية التي تتألف من



البراني المدخل والوسطاني القسم الأوسط والجواني القسم الداخلي ومن يدخل أياً من تلك الحمامات التي هي قيد الاستخدام لابد أن يلاحظ تتالي الأقسام الثلاثة وتدرج الحرارة فيها من الباردة فالمعتدلة فالحارة ويروي أبو الفرج الأصفهاني في كتابه (الأغاني) «أن غلاماً اسمه حنين كان في الكوفة يسمع الغناء ويشتهيه ويصغي إليه زار حمص في أواخر العصر الأموي وقال يصف زيارته هذه: دخلت حمص ألتمس الكسب بها وأرتاد من أستفيد منه شيئاً فسألت عن الفتيان وأين يجتمعون فقيل لي عليك بالحمامات فجئت إلى واحد منها فدخلته فإذا فيه جماعة منهم فآنست وانبسطت»[١]



حمامات حمص القديمة

عرفت مدينة حمص خلال العقود الماضية أكثر من ٢٢ حماماً أهمها:

---

(١) الأغاني، أبي الفرج الأصفهاني، تهذيب ابن واصل الحموي، شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، ط ١ / ١٩٦٣ ص ٣٠٦- ٣٠٧.

الحمام الصغير

يقع في سوق الصاغة ويرجع تاريخ بنائه إلى العهد الأيوبي وتزدان عمارته بالمقرنصات المروحية، وقد ظل يستخدم كحمام حتى ما قبل فترة قصيرة وينخفض مستوى أرضه عن أرض الشارع بمقدار ٣ أمتار وما زالت العناصر الإنشائية لهذا الحمام في حالة جيدة.



حمام العصياتي

يقع في حي باب الدريب شارع العصياتي وهو من أهم وأجمل الحمامات الأثرية في حمص وقد شيد في العصر المملوكي، وجُدد بناء مدخله عام ١٢٢٥ هجرية كما تشير اللوحة الرخامية المثبتة فوق مدخله ويتألف البراني فيه من قاعة واحدة حملت فيها أربع أركان وهي مزدانة بالمقرنصات المروحية وهي (عنصر معماري زخرفي مميز للعمارة القائمة إلى المضلع والدائرة) كما تزدان قاعات الجوّاني في حمام العصياتي بالمقرنصات الركنية

وتضاء قاعاته بالقمريات الزجاجية ولم يبق من الحمامات المستثمرة سوى حمامي العثماني و الباشا.

الحمام العثماني

شُيِّد عام ١٣٢٥ هجرية ويقع بجوار الأسواق التجارية الأثرية القديمة (سوق الصاغة – سوق المنسوجات – سوق البازرباشي ويمتاز هذا الحمام بالذوق المعماري والوساعة والدقة في البناء والتناظر والغنى بالرخام المنزَّل والأقواس الحجرية وبعض التزيينات الجدارية ويتألف الحمام العثماني من فسحة واسعة اصطفت من حولها المصاطب، وتوسطتها بحيرة جميلة رخامية الجنبات يغدق منها الماء المتناوب... وقد أُطّرت المصاطب بدرابزين خشبية ثبتت على جدران المصاطب وإلى جانب باب الحمام والمدخل الرئيسي من اليمين توضعت طاولة المعلم لاستقبال الزبائن ووضع الأمانات والودائع عنده

وقد توقف هذا الحمام عقوداً طويلة عن العمل حتى تم ترميمه منذ سنوات وتجهيزه بغرف خاصة للمساج والساونا تحت إشراف المديرية العامة للآثار والمتاحف.

وانقرضت الكثير من الحمامات الأخرى ومنها:

حمام الشهاب وهو من الحمامات المملوكية التي اشتهرت في حمص، هدم في نهاية القرن الماضي، وورد له وصف في مخطوطة آل الزهراوي (وجميع الحصة الشائعة وقدرها إحدى عشرة قيراط من أصل أربعة وعشرين قيراط من جميع الحمام العامر الداير الكاين باطن حمص المحروسة بمحلة باب هود المعروف بحمام الشهاب المشتمل على نحاس واقميم ومنافع ومرافق شرعية وما يحتاج إليه الحمام المذكور وشهرته في مكانه تغني عن تحديده..)[١]

---

(١) الموجز في تاريخ حمص وآثارها ، تأليف محمد ماجد الموصلي، مطابع الروضة، حمص ١٩٨٤.



وهناك (حمام الباشا) في شارع أبو الهول و(حمام الذهب) في منطقة الزاوية و(حمام الجديد) مقابل الجامع النوري الكبير وحمام (سيدنا خالد) جانب مسجد الصحابي خالد بن الوليد و(حمام المسدي) في شارع جمال الدين و(حمام الزهور) خلف حمام الصفاء و(حمام الدالاتي) بالميدان و(حمام الفرج) قرب القلعة وجميعها حمامات ذات قيمة أثرية كبيرة تدل أبنيتها على ذوق هندسي رفيع.

بقجة الحمام

كانت الحمَّامات في الماضي جزءاً من حياة المرأة الاجتماعية ورغم وجود الحمامات المنزلية كانت النسوة يتوجهن إلى حمَّام السوق نظراً للعناية الفائقة التي تشعر بها الفتاة أو السيدة عند حضورها للحمام وإلى ما يوفّره لها الاستحمام من فوائد تعيد لها الحيوية والنضارة وتجعلها موضوعاً للتغزل:

يا رايحة على الحمام خذيني معــاكي	**لحملك البقجة وامشي وراكي**
وإن كان أبوكي ما عطاناكي	**لأعمل عمايل ما عملها عنتر**

ولم تكن حمَّامات أيام زمان مقتصرة على جانب الاغتسال والنظافة والاسترواح بل كانت ولا تزال محببة في الشتاء والصيف لأن كثيرات يرتدنها للتخلص من آلام الروماتيزم حيث تقوم البلانة بتدليك أماكن الألم بزيت الخروع أو الزنجبيل ثم تستحم المرأة بالمياه الساخنة للتخفيف من حدة هذا الألم الذي يجد طريقه إلى العظام والمفاصل فيسكن فيها.

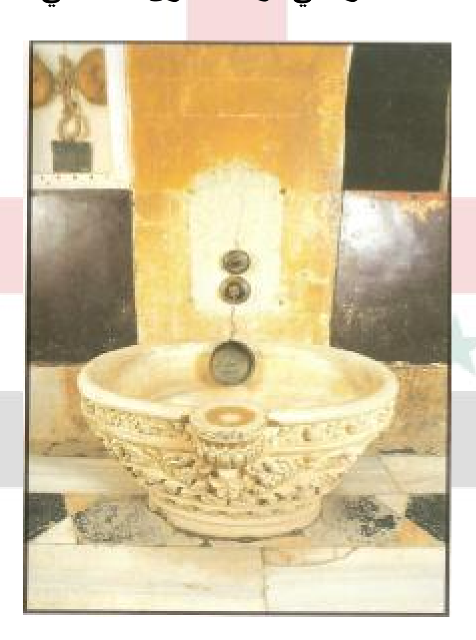
«الطشت» و«الترابة الحلبية»

إذا كان ارتياد حمام السوق بالنسبة للرجال يتسم بالعفوية وعدم الإعداد المسبق فالأمر مختلف تماماً لدى النساء فقد كانت المرأة ترتاد الحمام مصطحبة بناتها وأطفالها وزوجات أبنائها أو قريباتها وجاراتها وصاحباتها ولا تنسى المرأة منهن أن تحضر معها أدوات الحمام حيث تتأبط «الطشت» و«الجناطس» - ج جنطاس وهو عبارة عن وعاء من النحاس المزخرف يستعمل لغرف الماء في الحمام. واضعة فيها «الترابة الحلبية» والمشط والحنَّاء والليفة والصابون وكيس التفريك والطاسة العكاوية كما تجلب معها المآزر والمناشف ومنها ما يسمى «منشفة صيوان» و«منشفة قصبية» و«منشفة خابية» وكانت لجلسات الاستحمام وحدات قياسية كما الأطوال والأوزان تماماً، فعلى سبيل المثال المرأة التي تتم اغتسالها تحتاج إلى أربع قعدات ويُقال للقعدة (زوم) وفي كل قعدة تغتسل ٦ أتمام صابون و٦ أتمام بيلون ويكون مجموع الاغتسال ٤٨ تماً ولم يكن الرجال غالباً يتقيدون بذلك.

رصاص المغاربة!

تتولى إدارة الحمام بالنسبة للنساء امرأة تدعى «المعلمة» تساعدها «الأيمة» وهي التي تغسل النساء و«الناطورة» التي تجلب المناشف وتخدم المستحمات وتنظف الحمام بعد خروجهن، وإذا كان الرجال يستحمون خلال ساعة أو ساعتين على أكثر تقدير فالأمر مختلف بالنسبة للنساء اللواتي يتحول

الحمام بالنسبة إليهن إلى ما يشبه السيران، وكانت النسوة «يُلزمن» الحمام أي يستأجرنه حتى انتهاء الفترة المخصصة لهن وهي تمتد حوالي ثماني ساعات تفصلها فترة تسمى «السدة» حيث تُسد صنابير المياه وتكون هذه الفترة مخصصة للاستراحة والأكل الذي غالباً ما يكون «المجدرة» مع المخللات أو الزيت والزعتر أو«الكبة حيلة» وتُعرف أيضاً برصاص المغاربة تندرا بثقلها على المعدة وعسر هضمها فهي تشبه رصاص الجنود المغاربة الذين دخلوا حمص مع جنود الاحتلال الفرنسي أوائل القرن الماضي.



ولطريقة الاستحمام طقوس خاصة وكانت السيدة أو الفتاة لدى دخولها إلى الحمام تستريح في البهو (البراني) فترة قصيرة ريثما تقوم (البلانة) وهي المكلفة بالعناية بمرتادات الحمام بإرشادها إلى غرفة خلع الملابس التي تسلم إلى مالكة الحمام ثم تتجه بعد ذلك إلى غرفة البخار حيث تتولى البلانة دهنها بالزيوت المختلفة ثم تقوم بتدليكها بكيس من الصوف حتى تتخلص من الشوائب والغبار العالق بمسام جسدها، وبعد الانتهاء من هذه العملية تتجه السيدة إلى المغطس حيث المياه الساخنة فتقوم البلانة بتدليكها حتى إذا ما

انتهت صعدت إلى مصطبة رخامية عالية حيث تسترخي لبضع دقائق قبل أن تقوم البلانة بتكييسها مرة ثانية وأخيراً تخرج المستحمة لارتداء ملابسها ثم تتجه إلى البهو لتحتسي مشروباً ساخناً كالنعناع أو اليانسون قبل التأهب للخروج.

حمام النفاس

وارتبطت الحمامات الشعبية بالمناسبات السعيدة التي تحتفل بها النساء إذ اعتادت قريبات العروس وصديقاتها إحضارها منذ الساعات الأولى ليوم زفافها وتقوم مالكة الحمام بإخلائه لهن وتعلق الورود والمناديل الملونة ابتهاجاً بهن ثم تبدأ بتجهيز العروس والعناية بها.

وإذا كان الذهاب إلى الحمام يتعلق بمولود جديد أطل على العائلة فإن المرأة تعمل كل جهدها لإبراز هذا الحدث وتأكيد أهميته لديها ولا يتم الاحتفال بهذا الحدث دون (حمام النفاس) كما يسمى في الأوساط الشعبية وتعمل المرأة وأفراد عائلتها وخاصة الأم على إبرازه والاهتمام بتأديته في موعده.فبعد ولادة المرأة بسبعة أيام يتم التهيؤ لـــ (حمام النفاس) وترسل هذه المرأة إلى والدتها تعلمها بموعد الحمام ووجوب إحضار كافة مستلزماته وتبدأ الأم بتوجيه الدعوة إلى الأحبة والأهل والجيران معلنة أن ابنتها النفساء ستذهب إلى الحمام في اليوم الفلاني وعليهن الحضور، وترسل إلى صاحبة الحمام تعلمها بذلك أيضا كي تقوم بحجز حوض في اليوم المحدد وتؤكد عليها بموجب ذلك عدم إعطاء الماء منه لأية امرأة في الحمام إلا اللواتي يدخلن معها وبمعرفتها.

*   *   *

الفصل الرابع

وسائل التسلية في حمص...

وسائل التسلية هي جزء لا يتجزأ من التراث الشعبي لأي مجتمع من المجتمعات يعكس طريقة حياته، وأسلوب تفكيره وتكيفه مع الوسط المحيط وفي عصر طغيان المقاهي الإلكترونية والانترنت والفضائيات التي جعلت وسائل التسلية وإزجاء أوقات الفراغ أكثر تشويقاً وتنوعاً وتعقيداً أصبحت وسائل تسلية الأجداد جزءاً من الماضي الجميل الذي أصبح بدوره متحفاً كبيراً لكل مفردات الجمال والصدق والأصالة والغنى الروحي.

كانت السهرات ولا تزال من لوازم الحياة في المجتمع الحمصي إذ لابد للإنسان في الليالي - وخصوصاً ليالي الشتاء الطويلة- من وسيلة لتخفيف أعباء المشاق التي يكابدها في النهار ولذلك ساقته الطبيعة لـــ «اختراع» السهر والسمر وسهرات الماضي كانت تُقام في القناقات والقناق لفظة تركية تعني المسافة التي يقطعها المسافر في اليوم ثم تطورت دلالتها فأصبحت تدل على المكان الذي يبيت فيه المسافر وفي التعبير الشعبي يقابل هذا المعنى كلمة المضافة أو المنزول وإن كانت الكلمة الأخيرة مستهجنة في حمص إذ تدل على المكان سيء السمعة وكان أرباب العائلات الغنية في حمص يفردون في بيوتهم غرفة يُطلقون عليها «قناق» يؤمها الأصدقاء والمعارف ووجهاء الحي لتمضية السهرات وفي أثناء هذه السهرات كانوا

يتبادلون الأحاديث في مشاغلهم اليومية ويتسامرون ويتبادلون النكات وأخبار الحارة أو البلد، أو قصص الصيد وتربية الحمام وقصص الماضي والوقائع التي شهدها بعض الحاضرين كما «كانت تُحل في القناقات مشاكل البعض، ويقوم على خدمة الضيوف أحد أبناء صاحب القناق وتكون القهوة المرة والشاي والأركيلة فقط على حساب صاحب القناق أما تنباك الأركيلة فعلى الضيف الذي يدخنها»(١)

ومن القناقات التي كانت معروفة في حمص في الفترة ما بين خروج إبراهيم باشا عام ١٨٤٠ وحتى خروج الأتراك العثمانيين ١٩١٨ قناق يحيى زهراوي زادة نقيب أشراف حمص قرب قصر الزهراوي وقناق الميرلاي



(١) حمص دراسة وثائقية من خروج ابراهيم باشا وحتى خروج الأتراك العثمانيين، تأليف محمود عمر السباعي ومحمد نعيم الزهراوي، الناشر مطبعة الروضة، حمص، ط ١ / ٢٠٠٣ ص ١٤٩.

عبد الحميد بك مدير الأراضي السنية بحمص وحماة، وكان رواد هذه القناقات من الكهول والشيوخ المتقدمين في السن غالباً، أما الشباب فكانوا يرتادون المقاهي الشعبية التي كانت كثيرة ومتنوعة في تلك الفترة، كما كانت هذه القناقات مقتصرة على الرجال ومحظورة على النساء والأطفال، وبعد أن توسعت المدينة وضاقت البيوت بساكنيها، وبعد أن هُدمت البيوت العربية القديمة الواسعة نشأت فكرة أن يكون لكل عائلة من عائلات حمص قناق خاص يضم أبناء العائلة في المناسبات المختلفة كالأفراح والأتراح والسهرات الخاصة التي تطيب فيها الأحاديث الودية حول شؤون الحياة كما يحلو تبادل الطرائف والذكريات ولاسيما لدى كبارالسن وفي حمص اليوم أكثر من ٢٧ قناق موزعة على أحياء المدينة ارتبط كل واحد منها باسم عائلة من عائلات حمص المعروفة كعائلات (الأتاسي، السباعي، مندو، سحلول، طليمات، الحجة، رسلان، حاكمي، طيارة، الدروبي الأخرس ، شاهين ... إلخ).

وكانت قناقات حمص في الماضي بديلاً عن المقهى وأماكن اللهو يمضي فيها كبار السن أوقات فراغهم وهم يلعبون النرد أو ورق اللعب أو الشطرنج أو الضامة و الضومنا.

وكان من الأمور الشائعة في هذه الجلسات أصوات خرير الأراكيل وهي واسطة التدخين الأكثر رواجاً في ذلك العصر إذ أن لفات التبغ لم تكن كثيرة الإستعمال اللهم إلا ما كان يلفها بعضهم بأيديهم وهكذا كان من المألوف أن ترى في محافل القناقات عدداً من الأراكيل الجميلة الصنع المتعددة الألوان المصنوع أسفلها من القزاز الثمين المزركش بالنقوش الفنية وكان لكل مدخن «إمزكه» الخاص الفضي أو الذهبي الذي يحتفظ به بكل عناية داخل الشملة وهي زنار مستطيل يزيد طوله عن المترين والنصف وعرضه عن ٣٠ سم من الحرير السادة الأسود الغامق كانت تُلف حول الجسم عدة مرات ويُثبت طرفه الأخير بإدخاله بين طياتها وقد أشرع بعضهم نرجيلته يغبُّ منها بين

الحين والآخر نفساً عميقاً كلما احتاج الأمر إلى انتظار أو روَّية وتفكير أثناء اللعب.



ولتدخين الأرجيلة في المجتمع الحمصي أصول واجبة الإتباع في المقهى أو القناقات على حد سواء حيث كان الضيف يطوي الجزء الأعلى من النبريج ثم يعيده إلى مضيفه قائلاً: «من كف لا يُعدم» فيجيبه المضيف «ومن أخ لا يندم» وكان من المعيب تقديم النبريج باتجاه الزبون بشكل مباشر بل يطوى (الأمزك) للخلف، ويقوم الزبون بضرب ظاهر يد الشخص الذي يسلمه إياها ضرية خفيفة إشعاراً بأخذ النبريج وهي حركة رمزية دلالة على الشكر، كما كان من المعيب أن توضع «الأركيلة» فوق الطاولة فمثل هذا التصرف في الماضي من شأنه أن يسبب المشاكل داخل المقهى لأن هذا يعني في عرف القبضايات نوعاً من التحدي والاستخفاف، وكذلك لا يجوز أن يشعل أحدهم سيكارته من فحم الأركيلة أو نفض رمادها في الصينية وإلا سبب ذلك مشاكل قد تصل إلى حد القتل. وكان (شريِّبة) الأراكيل في المقاهي يجلسون صفاً واحداً لا على طاولة واحدة ونادراً ما يتبادلون الأحاديث فشرب

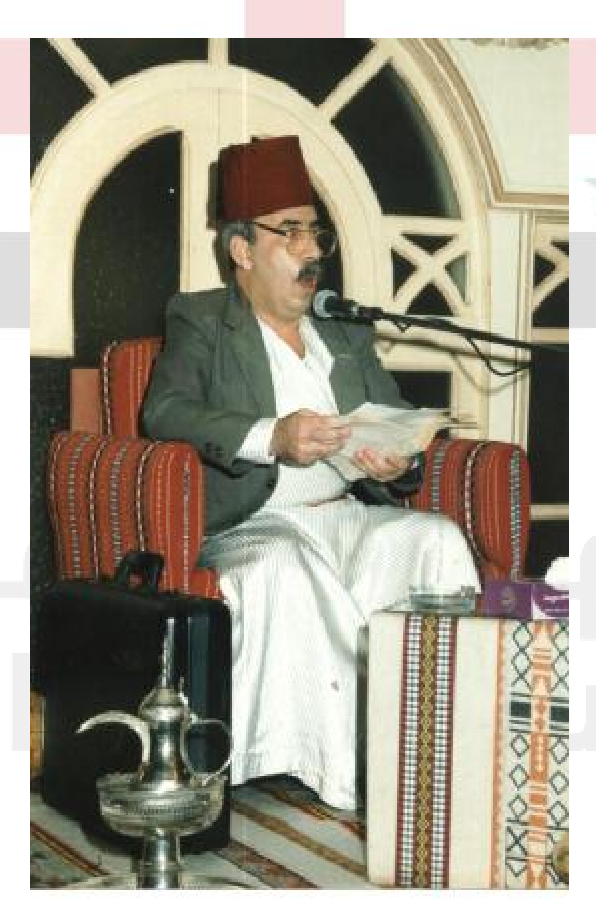
«الأركيلة» يفرض جواً من السكون والتأمل قد يمتد لساعات بحسب نوع النَفس ثم ما تلبث أن تتعالى أصوات اللاعبين وتُحدث ضجيجاً يشبه ضجيج حمام شعبي انقطعت المياه عنه.



ومن مظاهر التسلية في المجتمع الحمصي قديماً ارتياد المقاهي التي يؤمها الناس بمختلف طبقاتهم الاجتماعية يمضون أوقاتهم في لعب النرد «الطاولة» أو «الشطرنج» أو «الشدة» وهم يتناولون الشاي والقهوة ويدخنون الأراكيل، ومن وسائل التسلية التي كانت بعض مقاهي حمص توفرها لمرتاديها (الحكواتي) الذي كان يرفّه عنهم برواية أخبار أبطال السير الشعبية وما ماثلها من الروايات الحماسية التي يميل الناس لسماعها بلذة وإعجاب تقديراً للشجاعة وتحمساً لها، وكانت شخصية (الحكواتي) تجذب الناس من بيوتهم في أوقات محددة تكون عادة ما بين صلاتي المغرب والعشاء ليستمعوا إلى السير الشعبية التي تدور أحداثها حول سيرة عنترة والظاهر بيبرس وسيف بن ذي يزن وتغريبة بني هلال، وكان من المألوف أن ترى الحكواتي في هذه

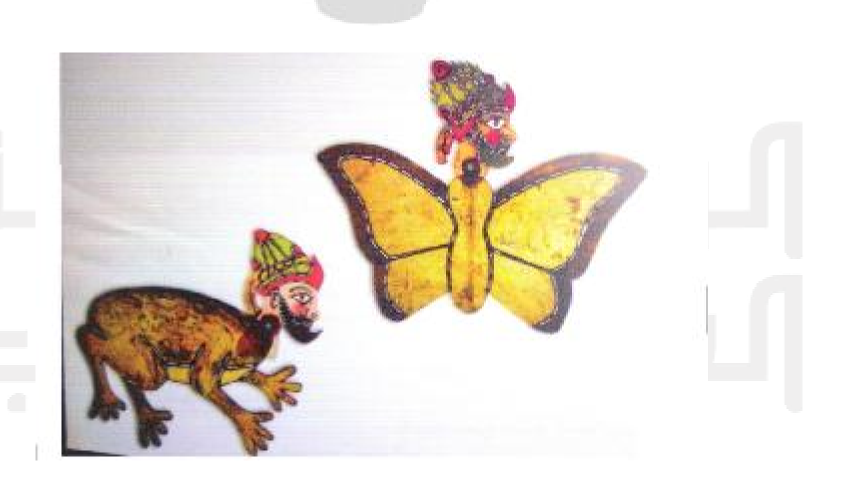
المقاهي مرتدياً الشروال والصدرية والقنباز ومعتمراً الطربوش المكوي، يصعد في وقته المحدد إلى دكة عالية في صدر المقهى «طاولة عليها كراسي» ويحمل بيده سيفاً من خشب، وعندما تأخذه الحماسة في سرد أحداث السيرة التي يرويها كان يترك مكانه ومخطوطه ويتجول بين رواد المقهى ويرتجل الأشعار والمواقف، وقد يدوم سرد القصة الواحدة عدة أيام يتوقف في كل ليلة عن الكلام في مكان يشد السامع لكي يأتي في اليوم التالي لمعرفة ما حدث.

ومن القصص الطريفة التي تدل على تفاعل أهل حمص مع الحكواتي واندماجهم في الأحداث المروية تلك القصة التي يتداولها الناس وتقول أن حمصياً علم بسقوط عنترة أسيراً في الحرب من خلال سياق القصة التي



يرويها الحكواتي وتوقف هذا الحكواتي عند أسره على أن يُتمْ الحكاية في اليوم التالي فأسودّت الدنيا في عينيه وذهب إلى بيته حزيناً، رافضاً الطعام والشراب ساخطاً على زوجته ، وخرج إلى الأسواق هائماً على وجهه حتى ذهب إلى منزل الحكواتي وأيقظه من نومه في ساعة متأخرة من الليل وقال له: «أنت قد وضعت عنترة في السجن وتنام مستريح البال فأرجوك أن تخرجه من السجن وأنا أعطيك لقاء ذلك ما تجمعه من الناس لأنني لا أستطيع النوم وعنترة «محبوس» وبالفعل استجاب الحكواتي للهفته وأكمل له القصة وأخرج عنترة من السجن فطابت نفس الحمصي وهنأ باله.

ومن وسائل التسلية التي كانت توفرها مقاهي حمص «خيال الظل» الذي أُشتهر لدى العامة باسم «كراكوز وعيواظ» وهو عبارة عن ستار من القماش في وسطه قطعة مدورة من الخام الأبيض، في أسفلها رف خشبي يوضع عليه سراج من فخار ينار بزيت الزيتون ويقف (الكركوزاتي) - وهي التسمية الشعبية التي كانت تُطلق على صاحب خيال الظل - خلف الستارة التي تُسمى الخيمة ويمسك بيده عصا رفيعة يحرك رسوم أشخاص من جلد إذا وُضعت على الشاشة ظهر خيالها مجسماً بعد عكس النور عليها من الخلف،



ثم يتكلم الرجل ويحرك الخيال فيبدو وكأنه يتكلم، وكان يبدل صوته حسب أصوات الرسوم.

كان مخايلو الظل يعرضون فصولهم أو باباتهم الممتعة دفعة واحدة مساء كل يوم في مقهى، وما إن ينتهي وقت صلاة العشاء حتى تزدحم مقاهي حمص بروادها يتوزعون في أماكنهم المعتادة، فالأولاد يقعدون أمام الستارة مباشرة على كراس صغيرة من القش والخشب، والشباب خلفهم على كراس من النوع نفسه، ولكنها أعلى ولها مساند للظهر، وأمام كل منهم طاولة خشبية، وفي صدر المقهى يجلس كبار السن وقد عمروا النرجيلة ويبدأ التبغ بالاحتراق ويتحرق الجميع شوقاً للآتي على تلك الستارة السحرية.

وقد أدى مسرح الظل خدمة كبيرة في حفظه للعادات والتقاليد التي كانت سائدة في الماضي ونقلها إلى الأجيال ومن الوجهة الفنية يعتبر خيال الظل الأداة التي مهدت إلى وسائل التسلية الحديثة كالمسرح والسينما ولكن خلافاً لما كان يُتوقع فقد دفعت هذه الوسائل الحديثة مسرح الظل إلى النسيان والاندثار.

ولم يبق من هذا المسرح اليوم سوى ذكريات يحملها قلة من الناس حفظوا هذا التراث الشعبي.

وإلى جانب خيال الظل الذي كان يجذب الكبار والصغار على حدٍ سواء كانت هناك وسيلة للتسلية خاصة بالأطفال وهي صندوق الفرجة الذي اختفى من الوجود منذ سنوات طويلة

كانت العملة في حمص نادرة و«الفرنك» عزيزاً وكان معظم الصغار يأخذون «خرجياتهم» بيضة أو مكيالاً من القمح أو الذرة يشترون بها حاجياتهم أو ينتظرون «صندوق الفرجة» يُنزل صاحب الصندوق أعجوبته عن ظهره، يضع مقعداً خشبياً أمامها كمقاعد المقاهي أو المدارس، فيهرع الصبية إليه جماعات ووحداناً يصطفون على المقعد متدافعين، ويحتضن كل

واحد منهم دائرة زجاجية «يفرغ» فيها عينيه. تُكَّبر له الصور التي ينظر إليها، وشريط الصور الثابتة بألوانها الزاهية اللمَّاعة يبدلها صاحب الصندوق



بخفة ورشاقة معلقاً على كل صورة لعنترة أو عبلة أو الزير سالم أو الملك سيف بن ذي يزن أو الظاهر بيبرس أو حمزة البهلوان أوعلي الزيبق:

«تعا تفرج يا سلام ؟ على عبلة أم سنان

تعا تفرج، تعا شوف، هادا عنتر بزمانو

كان راكب على حصانو

هادي هيا الست بدور.. قاعدة جوا سبع بحور

الأركيلة كهرمان والتخت من ريش نعام

شوف حبيبي. كمان وكمان»

عالم ملون

لا تزال تلك الصور على حالها في الخاطر، كأنها راسية في مرافىء الزمان القديم لا تغادر شواطىء الذاكرة... لا السينما ولا الفيديو ولا أطباق الدش استطاعت أن تمحو ذلك الشريط السحري من الخاطر، لكنها استطاعت أن تحيل «صندوق الفرجة» على المعاش لتنقرض تلك المهنة التي فتحت الطريق أمام الرؤية السينمائية المتحركة وليدة هذا العصر العجيب الغريب كـــ «صندوق الفرجة» ذاته. ولا يعُرف على وجه الدقة الأصل التاريخي لهذه التظاهرة ولكن يبدو أن ظهورها قد بدأ في أواخر القرن التاسع عشر- عصر اكتشاف الطباعة الملونة - إذ أن صندوق الدنيا يعتمد بشكل رئيسي على الصور المطبوعة والملونة ، ويتألف صندوق الدنيا من صندوق كبير يرتكز على ثلاثة أرجل يُحمل على الظهر وله فتحات بلورية (أربعة إلى ستة) يُشاهد من خلالها صور ملونة ملفوفة على لولب يدوي يدوَّره صاحب الصندوق فتتوالى الصور منمقة بحيث تتفق مع ما يرويه من قصص سرداً أو غناءً مرتجلاً تارة معيداً ما حفظه عن أسلافه تارة أخرى.

*　*　*

الفصل الخامس

صبحيات النساء في حمص

لكل مجتمع خصوصيته المتميزة التي تنبع من روافد عدة يتشكل بناء عليها الكثير من العادات والتقاليد والأعراف التي تتكون على آمادٍ طويلة لتصبح جزءاً لا يتجزأ من كيان المجتمع ونسيجه الخاص.

وتعد حفلات الاستقبال أو «الصبحيات» التي تقيمها النساء فيما بينهن جزءاً من خصوصية المجتمع الحمصي في الماضي والحاضر تعكس ثقافة ومبادىء وأفكار وعادات وتقاليد مجتمع النصف الآخر، ومثل كل المجتمعات وخاصة الشرقية منها أوجد التقسيم الصارم لأدوار كلٍ من الرجل والمرأة في مجتمع حمص تقسيماً للأمكنة التي يتواجد فيها كل منهما خارج المؤسسة الزوجية، فالمضافة والقناق والمقهى للرجال أما الصالون أو الحرملك – بالمصطلح الشرقي العثماني فهي للنساء وكانت فرصة تحرك المرأة في المجتمع الحمصي ضيقة جداً كما في مدن الشام كافة خصوصاً في الأوساط المحافظة، ولم يكن أمام النسوة سوى مجالين اثنين استطعن من خلالهما توسيع هذه الفسحة الاجتماعية من ضمن ما تبيحه الأعراف والتقاليد وهذان المجالان هما الصبحيات والاستقبالات كما ذكرنا آنفاً.

كانت لكل سيدة حمصية في الماضي صبحية خاصة تحييها كل أسبوع مرة في منزلها ويتوافد عليها صديقات المضيفة وقريباتها وجاراتها ومعارفها،

وفي مثل هذه الصبحية كانت السيدات تمارس حريتهن الكاملة دون قيود بعيداً عن الرجال لأن الاختلاط ممنوع، وكانت الصبحية تُجرى عادة في الفترة الصباحية من الساعة العاشرة حتى الساعة الواحدة بعد الظهر أي في الوقت الذي يكون الأزواج فيه خارج المنزل في أشغالهم ووظائفهم والأولاد في مدارسهم.

وكانت هذه الصبحيات تقتصر على النساء المتزوجات دون العازبات، ولم يكن من عادة العازبات مهما كانت أعمارهن المشاركة في مثل هذه اللقاءات الاجتماعية ولأن «الثقافة الهضمية» هي جزء أساسي في تركيبة المجتمع السوري ككل كانت صبحيات النساء في حمص تحفل بما لذ وطاب من المآكل والمشارب الحمصية اللذيذة من معجنات وحلويات بمختلف أنواعها إلى التبولة والفواكه وخبز التنور المغطى بالقشدة (المغطوطة) الذي كان ظاهرة مميزة في هذه الصبحيات ولكن فاكهة هذه الجلسات الحريمية الخاصة هي الأحاديث التي كانت تتصاعد حرارتها بين المصطبحات وتدور هذه الأحاديث عادة حول شؤون الحياة اليومية وحوادث البيوت وقصص الناس والشؤون الأخرى كالموضة والطبخ، ولا يخلو الأمر أيضاً من ثرثرات الغيبة والنميمة وتكون هذه الصبحيات أحياناً فرصة لاستعراض الملابس والحلي أمام الأخريات وخلال ذلك تدار الأحاديث والفكاهات وتضرب بعض النساء الحاذقات على العود أو ربما أحضرن عازف عود على أن يكون ضريراً، ولابد أن تغني إحداهن ولابد أن ترقص امرأة أو أكثر وكانت دارجة في مثل هذه اللقاءات الحريمية «رقصة ستي» الشامية المعروفة تعزفها إحداهن على العود فترقص سيدة أو أكثر بعد أن يحزمن الخصر بشال أو إيشارب أي شيء مشابه.

ومن الهناهين الشعبية التي ترددها النسوة في مثل هذه الجلسات:

ها وارقصي يا منعنعة

ها وبالسكَّر مقمعة

ها ورقصي وحياة (زوجها فلان)

ها وضلي على قلبو مدلعة

لي لي ليش

أو الهنهونة التالية :

ها وصلوا على محمد

ها وقولوا يا لطيف

ها (و فلانة) وحيدة

ها رأسمال أمها ضعيف

لي لي ليش

وترد بعض النسوة :

ها وقامت (فلانة) على حيلها

ها وهرّ الياسمين من ديلها (الديل بالعامية الحمصية طرف الثوب)

ها ولا تقولو (فلانة) وحيدة

ها في (فلانة) و(فلانة)غيرها

لي لي ليش .

وقد تأخذ بعض المشاهد في الصبحية أو الاستقبال طابعاً تمثيلياً هزلياً فترتدي إحداهن ثياب الرجال وتدخل على النسوة فتقلد سلوك الرجال وتصرفاتهم في الذهاب والإياب والحركة والكلام.

* * *

الفصل السادس

عادات الأكل والشرب في التراث الشعبي الحمصي

تُعد تقاليد الأكل والمطبخ في حمص كما في غيرها من المدن السورية من أصدق التقاليد الشعبية عراقة وأصالة وهي تعبر أفضل تعبيرعن حركة الناس والمجتمع، وقد حملت المرأة في هذه المدينة منذ آلاف السنين لواء نقل هذا التراث الشفوي عبر مئات السنين فهي التي تربي ابنتها منذ نعومة أظفارها على أصول الطبخ وتقاليده، ومعرفة المرأة لهذا الفن هي في عرف تقاليد المجتمع الحمصي قديمه وحديثه، مدنه وأريافه على حدٍ سواء شرط أساسي لزواجها، فالناحية الغذائية هي إحدى دعائم البيت السعيد وبخاصة لدى الطبقات الشعبية من هذا المجتمع ومن هنا ساد التعبير العامي «إذا بدك تملكيه بالأكل دلّليه» وهو يشابه المثل الفصيح الذي يقول «أقرب طريق إلى قلب الرجل معدته» والمجتمع الحمصي غني بالمعتقدات الاجتماعية والممارسات اليومية الخاصة بالأكل وتقاليده وعاداته.

والمطبخ الحمصي غنى بما لذ وطاب من المآكل والمشارب و«لعل هذا المطبخ هو حصيلة التماس بين شعوب شتى عاشت في هذه البلاد أو كان لها في تاريخها مرور مؤقت»[١].

ومن تقاليد الأكل الشعبي تظهر ملامح الثقافة الشعبية ويمكن معرفة المستوى الاجتماعي والمعيشي للشعب وذوقه ومدى تأنقه وثرائه النفسي

---

(١) التراث الشفوي في الشرق الأدنى، د نبيل جورج سلامة – إصدار وزارة الثقافة دمشق.

والاجتماعي، ويلتصق بالغذاء الشعبي كثير من الفنون كالأغاني الخاصة بالمواسم الغذائية والزراعية من حصاد ودراس وجني والنقوش والزخارف على أواني المطبخ وصناعة هذه الأواني والأدوات الملحقة بها.

وفي متحف الزهراوي الكثير من نماذج هذه الأدوات كصواني الفضة وأقداح الشراب والقهوة والمطبقيات (أوعية خشبية لحفظ الطعام) والشوك والملاعق والآنية المزخرفة والسلطانيات والأباريق المعدنية.

وللطعام تقاليده المتعلقة بالاحتفالات والمناسبات الدينية والأعياد والمواسم المناخية بل يعتبر جزءاً لا يتجزأ من المناسبة لا يكتمل العيد أوالمناسبة بدونه ولا يهنأ للناس مقام، وهذا يعود على الأغلب إلى أن للطعام في نفوس البشر جذور عميقة تربطه بالشعور الوجداني لدى الإنسان.



بيناتنا خبز وملح

يتمثل الموروث الشعبي الخاص بالأكل في المجتمع الحمصي من خلال الأمثال والحكم الشعبية والمعتقدات والألفاظ وأدوات الاستخدام اليومي الخاصة بالطعام ومن ذلك ما يُسمى «الممالحة» التي يصر عليها المضيف

دائماً عندما يكون لديه ضيف ولعل إصرار الحمصيين على الممالحة يعود إلى اعتقادهم بان الإنسان الذي تمالحه ويمالحك أي يأكل من بيتك أو تأكل من بيته فإنك تأمن غدره وخيانته وكذلك هو، وهم يقولون في هذه المناسبة «بيناتنا خبز وملح» أي أن هذه الممالحة أصبحت بمثابة عهد شرف قطعه كلٌ منهما على نفسه تجاه الآخر بأن لا يخونه أو يغدر به، ومن يخون هذا العهد أو ينكث به فيغدر بصاحبه يقال عنه «خاين الخبز والملح» وهي أسوأ صفة يمكن أن تطلق على إنسان أياً كان. ومن معتقدات الناس تشاؤمهم إذا رأوا شخصاً يضرب آخر بمغرفة الطعام لأن ذلك باعتقادهم يؤدي بالشخص المضروب إلى أن يظل جائعاً لا يشبع أبداً، وإذا اعترت الإنسان غصة أثناء تناول الطعام فإنهم يفسرون ذلك بأن هذا الإنسان كان يريد أن يتكلم أو يقول شيئاً ويعبرون عن ذلك بقولهم.

«أبصر شو كان بدو يحكي» ويقال «اتغدى واتمدى واتعشى واتمشى» وهذه الفكرة لا تخلو من الصواب كما تشير الدراسات الطبية الحديثة.

كثرة الطباخين حرقت الطبخة!

من الأمثال الشعبية المتعلقة بالطعام قولهم «لا تحط خبزك بجيب غيرك وتاكلوا بالمنية» «الضيف المتعشي ثقلتوا عالأرض» «خبزاتو بلا أدام وبيعزم الجيران» ويُقال أيضا «دبساتو مراق» «أي أن حالته المادية ضعيفة» أكل الرجال على قد فعالها" «متل واحد عم ياكل بنومو» «طعمي التم بتستحي العين» «اللقمي اللي بتمو مانا إلو» «كناية عن الإيثار وتفضيل الغير على النفس » «لاقيلي ولا تطعميني» «أكلة وانحسبت عليك كُولْ وبحلق عينيك» «دخانك عمانا وأكلك ما إجانا» «إذا كثرو الطباخين احترقت الطبخة» «شو ما طبخت العمشى جوزها بيتعشى»[1]

---

(١) أمثال حمص الشعبية، جورج فارس رباحية إصدار خاص، حمص ط١ ٢٠٠٦.

كما ارتبطت تقاليد الأكل بنداءات الباعة ومنها النداء الذي يردده بائع اليخنا _ أي الملفوف «يخنا واطبخ والجارية تنفخ والعبد عالباب يطرد الكلاب» ويُعتقد أن هذا النداء يعود إلى عصر المماليك حينما كان العبيد والجواري يعملون في بيوت الموسرين وكان الطبخ يجري على نار الحطب ولا تتأجج النار إلا بالنفخ عليها.

ومن العادات المرتبطة بالأكل في حمص كما في غيرها من المدن الإسلامية إضفاء صفة الاحترام والتقدير على الخبز الذي لا يُستغنى عنه لدى الكثيرين مهما كان نوع الطعام الذي يتناولونه، ويحرص الناس على ألا يدوسوا أية قطعة خبز مهما صغرت، وإذا ما وجد أحدهم قطعة من الخبز مرمية على الأرض فإنه يتناولها بكل خشوع واحترام ويقبلها ويضعها على جبينه ثم يُودعها جانباً بحيث لا تتعرض لأن تداس بالأقدام لأن الخبز نعمة من الله.

إشباع العين قبل الفم!

تختلف عادات الطعام في حمص من حارة لحارة وحتى من بيت لبيت ولكن هنالك عادات مشتركة تجتمع عليها الفئات أو المدن.. منها ما هو مشترك بين الناس كلهم.. كغسل الأيدي قبل وبعد الطعام والبسملة قبل تناوله والحمد لله بعده امتثالاً لحديث رسول الله r الذي روته السيدة عائشة رضي الله عنها «إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإن نسي أن يذكر اسم الله تعالى في أوله فليقل بسم الله أوله وآخره» رواه أبو داوود.

ومن آداب الطعام في حمص كما في كل المجتمع السوري عدم الحديث واللقمة في الفم.. وعدم فتح الفم أثناء المضغ..ولا تقتصر هذه العادات على البيت فهي في العمل أيضاً..حيث كان طعام صاحب الدكان يأتيه ظهراً في (سفرطاس أو مطبقية) وهي عدة علب معدنية توضع فوق بعضها

البعض ويُسكب فيها جزء من طعام أهل البيت يُرسل إلى صاحب البيت الذي يكون في متجره أو دكانه وقت تجهيز الطعام، يأتي بها صبي المتجر أو أحد عماله، وتقاليد الطعام في حمص مثلاً أساسها إشباع العين قبل الفم ولذلك ساد المثل الشعبي (فلان عينو شبعانة). كناية عن التعفف وعدم مد يد الحاجة، ويقال عن صاحب الحاجة الذي لا يتعفف عن السؤال «عينو فارغة»، ومن عادة الحمصيين القدماء وضع وعاء الخبز إلى جانب الضيف كي يتناول منه ما يشاء دون إحراج، والحمصيون عامة كما هم أهل المدن السورية الأخرى يحلفون على ضيوفهم الأيمان المحرجة ليأكلوا فوق طاقتهم أحياناً.

وهكذا نرى أن الموروث الشفوي للطعام وآدابه في حمص غني بالتفاصيل الفسيفسائية الطريفة التي تعكس فلسفة أهل المدينة وكيفية تأقلمهم مع حركة الحياة و صيرورة المجتمع، ولكن هذا الموروث لم يحظ للأسف بالقدر الكافي من الاهتمام رغم ما لهذا الجانب من أهمية في دراسة علم البشر وآلية تفكيرهم ومعتقداتهم وممارساتهم اليومية.

* * *

الفصل السابع

تقاليد عيد الفطر...

برغم رياح التطور التي طالت كل مرافق الحياة تقريباً لا يزال بعض من التقاليد والعادات محفوراً في عمق الذاكرة الشعبية والوجدان الجمعي للناس لم تَطلْها صرعات التغيير ولم تؤثر فيها أشكال العصرنة الهجينة والغريبة عن هويتنا وموروثنا الاجتماعي،ونسائم عيد الفطر في حمص لازالت تسري عبر التقاليد الموروثة والمظاهر الفولكلورية المحببة التي لا تخلو منها مدينة إسلامية ولكن بخصوصيات فسيفسائية متمايزة ، ومن هذه التقاليد الاحتفال بعيد الفطر السعيد الذي تبدأ طقوس الاحتفال به في حمص قبل حلوله بيوم أو يومين إذ ينتشر باعة غصون الآس في شوارع المدينة ويقبل الناس على شرائها وتحضيرها لزيارة القبور صباح أول يوم عيد الفطر قبل بزوغ الشمس وتوزع الصدقات قبل الذهاب للصلاة ويذهب الناس إلى المساجد بأفخر ما لديهم من ثياب وزينة وبعد الصلاة يتصافحون ويباركون بعضهم بعضاً ثم يتبادلون الزيارات مع الأقارب والأصدقاء ويدعو الموسرون لطعام العيد بعض ذويهم من المعسرين وكذلك يدعو رؤساء الحرف صناعهم وأجراءهم ويقدمون لهم العيدية وخلال الزيارات للتهنئة تقدم الحلوى والمعمول والسكاكر أو الملبس.

أما الأطفال فللعيد عندهم معنى آخر فالنقود كثيرة والثياب جديدة وهنا نتذكر.

بربة العيد التي كانت تنصب فيها الأراجيح ويجتمع فيها الباعة ويرتادها الرجال والنساء والأطفال، وكان من المألوف أن يشارك المسيحيون إخوانهم المسلمين في التهنئة ليس في حمص فحسب وإنما في المدن السورية كافة، وقد كتب فارس الخوري إلى العلامة محمد كرد علي في ٨- كانون الأول ١٩٠٤ يقول: (وأخذت أطوف من بيت إلى بيت مهنئاً أركان الولاية ووجهاء المدينة بعيد الفطر هذا داعياً لهم بأن يحيوا إلى أمثاله ممتعين بالخير والصفاء (أوراق فارس الخوري ص ٣٢٣)[١]



ويصف المؤرخ أحمد حلمي العلاف في مذكراته مظاهر الاحتفال الرسمي بعيد الفطر في الماضي قائلاً (إذا حل عيد الفطر تطلق الحكومة

---

(١) حياة دمشق اليومية كما صورها المعاصرون أواخر العهد العثماني، الدكتورة خيرية القاسمية، مطبعة الداودي، دمشق ط١/ ٢٠٠٠.

المحلية المدافع إيذاناً بانقضاء رمضان وتنقضي حفلات وداع رمضان التي تجري في المساجد والآذان وتزدان الدوائر الرسمية بالقناديل والأعلام ويرفع الناس على حوانيتهم ودورهم أعلاماً قديمة كتُبت عليها بعض الآيات الكريمة وبعضها عائدة إلى بعض شيوخ الطرق، وتصطف الفرق العسكرية أول يوم العيد أمام المسجد الأموي وتؤدى التحية لوالي المدينة وقائدها العسكري وبعض كبار الموظفين[١].

وفي كشكول الطفولة الكثير من الصور والملامح والذكريات التي لا تُمحى عن عيد الفطر السعيد ومظاهر الاحتفال به في الماضي ففي الأسبوع الأخير من رمضان تهتم العائلة بتأمين الملابس والأحذية الجديدة ولذلك تكون الأسواق قبيل العيد مكتظة بالناس وتنشط حركة البيع والشراء يبدأ الناس عيدهم بذهاب الرجال إلى المساجد بعد صلاة الصبح لأداء صلاة العيد، أما النساء فيذهبن إلى الجبانات قبيل الشروق حاملات باقات الآس أو الورد لتشكيل القبور (أي وضع الآس عليها) .

عيديات الأطفال

بعد أداء صلاة العيد التي تتم بعيد شروق الشمس يتوجه الرجال مصطحبين أولادهم لزيارة قبور ذويهم فيتلون الفاتحة ويعايد بعضهم بعضا بالتحية المعروفة (كل عام وانتم بخير) ومن آداب زيارة القبور أن لا تقتصر تلاوة الفاتحة على أقارب الزائرين بل تتلى الفاتحة وتوهب لأرواح جميع المدفونين في المقبرة .

---

(١) مصدر سابق.

بعد ذلك يعودون إلى بيوتهم لتناول الفطور ومعايدة أفراد الأسرة وتوزيع العيديات وهي النقود التي تعطى للأطفال في هذه المناسبة ويتزاور الناس في أيام العيد الثلاثة مقدمين التهاني بالعبارات التقليدية التي لا تزال مستعملة حتى اليوم أما أغلب المعيّدين من الأولاد والمراهقين والشبان فيذهبون إلى أماكن الألعاب حيث توجد القلابات والدويخات وغيرها وحول هذه الألاعيب كنت ترى بائعي البزورات والقضامة والمسكي والسوس واللبن العيران والليمونادة إذا كان الجو حاراً وكل ذلك يختلط بأهازيج الأطفال وراء من يحرك بهم الدويخة أو القلابة قائلاً:

يا حج محمد فيجيبه الأطفال باللازمة (يو.. يو)

عيرني حصانك... يويا ... يويايا

لشد واركب..... يويا... يويا

والحق اسكندر... يويا... يويا

واسكندر مات... يويا... يويا

خلّف بنات .... يويا... يويا

بناتو سود... يويا... يويا

طقش البارود يويا... يويا

ثم يقول لهم: قوموا انزلوا، فيجيبونه ما بننزل، فيقول لهم غصبن عنكم ويردون ما بننزل ويعلو صياحهم حتى ينتهي الشوط حسب الزمن الذي يقدره صاحب الأرجوحة أو الدويخة أو القلابة ودوران الدويخة أفقي أما القلابة فدورانها عمودي.

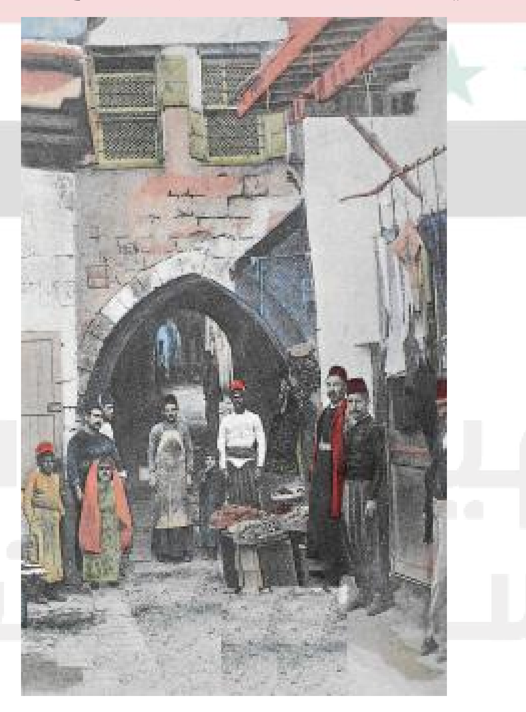


يا حج محمد

ولعبارة (يا حج محمد) التي يردِّدها الأطفال أثناء ركوب الأراجيح في المدن السورية قصة طريفة يرويها الباحث شاهر يحيى قائلاً :



«عندما اعتقل الفرنسيون في سورية الثائر إبراهيم هنانو وسجنوه تمهيدا لمحاكمته قامت السلطات الفرنسية بتكميم أفواه الناس وملاحقة كل من يتظاهر لمصلحة هنانو وقد اعتقل عدد كبير من الوطنيين والمفكرين لأنهم طالبوا بإطلاق سراح هنانو وقد تولى ملاحقة الناس في شأن إبراهيم هنانو في حلب ضابط كبير فرنسي عُرف باسم اسكندر، ولإرهاب الناس منعت السلطات الفرنسية عن أبناء حلب استيراد الأرز والسكر كعقوبة لهم بسبب مظاهرات قاموا بها محيين من خلالها هنانو وقد أصاب الناس جوع من جراء هذا المنع إلا أن تجار لبنان تحايلوا بتهريب هذه المواد إلى حلب، وفي هذه الظروف ظهرت أغنية شعبية انتشرت بسرعة هائلة بين أبناء حلب ثم انتشرت في باقي المدن السورية وهي (يا حج محمد عيْرني حصانك) ومازالت هذه الأغنية جزءاً من طقوس الاحتفال بالعيد عند الأطفال في سورية مرافقة لركوبهم الأراجيح»[١] .



---

(١) دراسة بعنوان "أحاديث شعبية عن الأغنيات العربية " بقلم شاهر يحيى، جريدة الفنون، الكويت.

الفصل الثامن

خميس المشايخ في حمص:

طقوس فولكلورية تستعيد زمن التجدد !

حتى مطلع الخمسينات كانت مدينة حمص السورية مسرحاً لاحتفالات أعياد الربيع التي كانت تبلغ ذروتها عند طواف أصحاب الطرق الصوفية بمواكبهم في شوارع المدينة وضواحيها، ولا يزال البعض ممن تقدمت بهم السن من أهالي حمص يحتفظون بذكرى حية عن هذه الأعياد التي كانت تشهدها مدينتهم.

كانت أعياد الربيع في حمص تمتد إلى سبعة أخمسة متتالية موزعة على شهري آذار ونيسان، وربما على شهري شباط وآذار. وإن كان هذا نادراً، وتشمل فترة الاحتفالات دائماً الاعتدال الربيعي، ويُستخدم تاريخ الفصح المسيحي الأرثوذكسي كنقطة مرجعية لتحديد هذه الأعياد التي هي في جوهرها أعياد إسلامية وأُطلق على أخمسة الأعياد السبعة التسميات التالية: (خميس الضايع – خميس الشعنونة - خميس المجنونة – خميس القطط – خميس النبات ويسمى أيضا خميس القلعة – خميس الأموات – خميس المشايخ - ويسمى أيضاً خميس الأسرار أو خميس البيض ولكن اسم خميس المشايخ طغى عليه.

وإذا كان من المدهش للوهلة الأولى أن تُحدَّد أعياد إسلامية تبعاً للفصح الأرثوذكسي فإن السياق الذي ولّد هذا الموقف يبدو عند التفكير به طبيعياً جداً، فأعياد الربيع القديمة التي يُفترض أنها أصل مثيلاتها المعاصرة تُحدد وفق تقويم قمري – شمسي فقد كانت كافة التقاويم الطقسية في الشرق الأدنى القديم قمرية –

شمسية في بلاد ما بين النهرين، في سورية، عند الكنعانيين – الفينيقيين وكان هذا التقويم مثل أي تقويم مختلط آخر معقد الإستخدام فعندما لم يعد هناك رجال دين قادرين على تحديد مواعيد الأعياد أصبح الفلاحون " أو المدنيون " الذين حافظوا على بعض الطقوس عاجزين عن حساب الأيام التي يجب أن تتم فيها هذه الطقوس فلم يعد أمامهم من خيار إلا أن يعتمدوا على ما يقوم به الكهنة المسيحيون من أجل تحديد الفصح، عيد نيسان الذي ارتبط تاريخه بتقويم قمري شمسي (مثل الأعياد القديمة التي يخلدها التراث الشعبي).

وإذا كانت كل واحدة من هذه الأخمسة تحمل ذكرى ما في حمص، فإن الجزء الأساسي من هذه الذكرى يتركز حول خميس المشايخ لأنه الوحيد الذي مازال يُذكر بشكل عفوي من بين المجموعة كلها، و " هذا الموسم الحمصي الكبير بقي بالنسبة للبعض، بعد أكثر من ثلاثين سنة من اختفائه الصورة الأكثر تعبيراً عن الازدحام والمرح الصاخب وعن حميّة الأيام العظيمة، حتى الشباب الذين لم يعرفوا العيد، بل سمعوا عنه ما يكفي لجعل اسم خميس المشايخ على الأقل معروفاً لديهم، وأن يكوّنوا فكرة تقريبية عن طبيعته"(١)

كانت فعاليات الاحتفال بهذا العيد تبدأ بالظهور منذ يوم الأربعاء، فتخرج من الزوايا وتنتشر في الشوارع مُضفيةً على المدينة ذلك الجو من الحماسة الخفيفة الذي يبشر بالاحتفالات الجماعية الكبرى مثل موسم شم النسيم في مصر، حتى في وقت أبكر من ذلك، أي خلال الأسابيع السابقة، يبدأ نقل السناجق في مختلف أحياء المدينة دون أن يبتعد أي منها كثيراً عن الزاوية المحفوظة فيها ويشهد يوم الخميس استكمال الطقس الرئيسي بطواف كبير للفرق الصوفية، انطلاقاً من المدينة إلى مسجد بابا عمرو القروي الذي يقع على بعد خمسة كيلومترات إلى الجنوب الغربي من حي الميدان – نقطة انطلاق المواكب.

---

(١) أعياد الربيع القديمة في حمص، جان إيف جيلون، ترجمة زياد خاشوق، اصدار خاص/ حمص ١٩٩٨.



من القدس إلى حمص

يعتمد بعض الباحثين والمؤرخين في تفسيرهم لأصل العيد وبعض الأحداث المتعلقة به على روايتين. الرواية الأساسية وهي الأكثر شيوعاً إلى حد كبير تنسب أحداث العيد إلى السلطان الأيوبي الشهير صلاح الدين، ويمكن أن نميّز بين روايتين مختلفتين : في الرواية الأولى، حين رأى صلاح الدين تدفق الحجاج اليهود والمسيحيين الصليبيين إلى القدس في زمن الفصح، أراد إقامة عيد إسلامي في المدينة المقدسة يقع في نفس الفترة، وهنا تنقسم الرواية إلى احتمالين إما لأنه أراد إظهار الطابع الإسلامي للقدس، وإما لأنه خشي أن يحاول كل هؤلاء الحجاج المسيحيين الصليبيين القيام بحركة عصيان (استيلاء على السلطة) فأراد أن يجعل ذلك مستحيلاً بإغراق جمعهم بجمع أكبر من الزوار المسلمين.

وفي الرواية الثانية: وهي مختلفة بشكل ملموس، تخيّل صلاح الدين خطة لمهاجمة مدينة أو معسكر أو قلعة يسيطر عليها الصليبيون، فجعل جنوده يمرون متنكرين بلباس الدراويش خلف رؤسائهم الذين يلبسون لباس الشيوخ على أنغام النوبات (والنوبات هي جلسات تعزف فيها الموسيقا الدينية التي ترافق احتفالات الصوفيين، كالمواكب والرقص الطقسي والذِّكر الجماعي والأناشيد والترانيم الدينية... الخ) اتجه الموكب نحو مواقع الخصم الذي خرج دون حذر ليتأمل المشهد، وعندما أصبح عدد الصليبيين الخارجين كبيراً،

رمى السائرون في الموكب ألبسة الدراويش وكشفوا عن أسلحتهم وهجموا على العدو فحصلت معركة دامية. وعلى هذا يكون الموكب السنوي تخليداً لذلك الحدث أو ربما حتى استعادة له.وهناك رواية شعبية تقول أن السلطان عبد الحميد (١٨٣٩ -١٨٦١) مرض ووصف له علاج عن طريق تغيير الجو فاختار المجيء إلى حمص للإقامة فيها وكان مشايخ الصوفية آنذاك في حمص معتادون على القيام بنزهة خارج المدينة خلال فصل الربيع، وعند وصول السلطان لم يجد أحداً في استقباله فاستشاط غضباً وأمر بإغلاق أبواب المدينة كي لا يتمكن الشيوخ الغائبون من العودة، ولكن عندما عادوا استخدم أحد الشيوخ كراماته وجعل الباب ينفتح من ذاته ومنذ ذلك الحين والموسم يخلد ذكرى انتصار شيوخ حمص على السلطان عبد الحميد.

سنجق سيدي خالد

كان خميس المشايخ يبدأ قبل موعده ببضعة أيام حيث يبدأ توافد الزوار من سائر المدن والقرى القريبة من حمص ومن خارجها حتى تغص المدينة بزوارها وتمتلىء بهم الفنادق والقناقات و(هي المنازل التي كانت العائلات الحمصية تخصصها للقاء في المناسبات والأعياد) –كما مر بنا آنفاً - ومنذ عصر الأربعاء يبدأ مشايخ القرى بالوصول إلى حمص ويذهبون كلاً إلى الزاوية التي ينتسب إليها.

كان الموكب ينطلق من مسجد خالد بن الوليد الذي يدعوه أهل حمص تحبباً (جامع سيدي خالد) بعد أن تتم التحضيرات الكاملة، ويتقدم الموكب سنجق سيدي خالد المحفوظ في ضريحه و(السنجق) هو راية عريضة مستطيلة الشكل تُنصب بواسطة سارية موجودة في المركز، بينما جناحاها يُشدان بواسطة حبال بحيث يصبح شكل السنجق المنشور والمرفوع عبارة عن مستطيل يعلوه مثلث وليس مجرد مستطيل وحسب تبرز السارية المركزية من فوق القماش وتنتهي برأس غالباً ما يكون من النحاس، أما سنجق سيدي خالد فهو من الفضة وقطعة القماش مغطاة بعبارات مخططة (مكتوبة بالدهان أو مطرزة أو مقصوصة من شرائط

قماش ومُخاطة بعد ذلك على "خلفية" السنجق ومدوَّن عليه آيات قرآنية أو حِكَم تمجد النبي صلى الله عليه وسلم أو عبارات دينية أخرى. وخلف السنجق تمشي أفواج الموكب من نوبات المزاهر والششتري والمريدين.





الزاوية السعدية في حمص التي شادها السلطان عبد الحميد الثاني
وفوق المحراب لوحة أثرية كتب عليها العبارة التقليدية
[illegible]

ويصف الباحث التراثي (محمد غازي حسين آغا) بالتفصيل أحد اجتماعات شيوخ ورجالات المواكب في الزاوية السعدية القديمة في باب تدمر قائلاً:

"يعلن متكلم باسم الحي للشيخ أن الحاضرين تحت تصرفه من أجل تشكيل الموكب، يقبل الشيخ العرض، فيهنئه الموجودون بالموسم الجديد، يوزع الشيخ الأدوار ويشكّل النوبات العادية أو نوبات المزاهر ونوبات (الششتري) ويختار من عشرين إلى ثلاثين مريداً يرافقونه وهم يلبسون لباساً أبيض ويغطون رأسهم بكسوة من الصوف الأبيض، ومن بين هؤلاء يُكلّف البعض بحمل سلاح (سيف أو شيش أو بلطة أو لتّ) ويحمل البعض منهم أيضاً كشكولاً (آنية من النحاس المطروق) على الأغلب ويمكن أيضاً أن تُستخدم كوعاء للوضوء "[١].

صباح الخميس تتفرق النوبات وتذهب كل نوبة إلى بيت أحد الخلفاء لتحضّره (والخلفاء هم تلامذة مريدون أصبحوا شيوخاً) ويلتحق كل خليفة بالزاوية ترافقه نوبته، وعندما يكتمل حضور الجميع ينظم نقيب النقباء الموكب طبقاً لتعليمات الشيخ. في البداية تأتي نوبات المزاهر تتألف كل واحدة من الآلات التالية أربعة مزاهر (المزهر عبارة عن طبلة كبيرة مسطحة دون أجراس تُضرب بالأصابع وبراحة الكف وتتألف من جلد مشدود على إطار من الخشب)، ولكل نوبة رئيسها، وخلف نوبات المزاهر يأتي الدراويش أو الفقراء (والمقصود بهم المريدون النشطون على عكس الأنصار العاديين في الطريقة وعددهم من عشرين إلى ثلاثين يلبسون لباساً أبيض ويضعون الكسوة ويتلون ذكر الأسماء الحسنى على طول الطريق تحت إدارة نقباء الشيخ ثم تأتي نوبة الششتري. وهي نوبة خاصة كان النظّارة ينتظرون مرورها بفارغ الصبر، لأن تلك المناسبة كانت الوحيدة التي يمكن سماع هذه

---

(١) مخطوط خميس القدس في مدينة حمص (خميس المشايخ) تأليف محمد غازي حسين آغا.

النوبة بها، ولم تكن نوبة الششتري تتضمن المزاهر، فآلاتها هي الطبل الصغير والنقارة والصنج وليس هناك شرحاً كافياً لكلمة (الششتري).ومن المحتمل أن يكون اللفظ محرفاً وأن تكون الكلمة مشتقة من (شُشتري)[١] وخلف نوبة الششتري يأتي جمهور المريدين الذين يتم اختيارهم للمشاركة في المجموعة التي تلبس الأبيض خلف هذه المجموعة يأتي الشيخ على حصانه يحيط به منشدان يضع كل منهما يده على سرج الحصان وينشدان بالتناوب أبياتاً في مدح شيوخ الطريقة (الجيباوية) – نسبة إلى المتصوفة الشهير سعد الدين الجيباوي - وعلى ظهر مطية الشيخ سجادة، أما الشيخ فتُحمل له راية هي شعاره الشخصي "إشارة" وباكورة يسندها إلى السرج.

" الدوسة" و" الشيش"

كان المسير يجري بطيئاً في يومي الخميس والجمعة على حد سواء وذلك بسبب عدم انتظامه. إذ تتوقف النوبات كلما شاهدت بين الجمع إحدى الشخصيات المرموقة وبشكل خاص إذا كانت ممن عُرفوا بتقواهم فتعزف لهم وتقدم الأمهات أولادهن إلى المشايخ ليباركوهم أما النساء اللواتي يَسْعَيْن إلى البركة لغاية شخصية (من أجل الخصوبة مثلاً) فيباركهن الشيوخ بواسطة عصاهم لتحاشي التماس الجسدي المباشر. ويمضي الموكب باتجاه باب التركمان غرباً على إيقاع الطبول والأناشيد الدينية ويتقدم كل شيخ سنجقه حتى يصلوا قرية بابا عمرو والناس محتشدون على طرفي القرية نساءً ورجالاً وبينهم بائعو المسكة والمخلل ويسير الموكب وئيداً حتى يصلوا مسجد بابا عمرو الذي يُعتقد أن الصحابي(عمرو بن معد يكرب) مدفون فيه ومن هنا اخذ اسمه فينزل السادة المشايخ عن دوابهم ويريحونها ويريحون أتباعهم

(١) الششتري: صوفي ولد في الأندلس وتوفي عام ١٢٦٩قرب دمياط ، وكان شاعراً مهماً ألف العديد من الموشحات التي يبدو أنها انتشرت بشكل خاص عند الشاذلية – المؤلف.

ومريديهم ويتناولون غذاءهم ثم تؤدى صلاة الظهر في مسجد بابا عمرو وإذا كان النهار جميلاً مشمساً والجو صافياً انتشر الناس في البراري المحيطة بالقرية يجلسون على طرفي الزرع وعلى ضفاف الساقية التي تمر بقربها فترى الناس جماعات وفرداناً، النساء يفترشن الأرض بملاءاتهن السود يأكلن ماحملنه من طعام وفواكه وغيرها، وبعد الانتهاء من صلاة الظهر كان المشايخ يقيمون حلقات الأذكار،كل شيخ مع أتباعه ومريديه، ثم يُعاد ترتيب الموكب ويعودون إلى البلد عن طريق طرابلس مارينَ بمصلى باب هود ثم الشارع الرئيسي ثم شارع القوتلي – حالياً – ويحتشد الناس في شرفات الفنادق والبيوت المطلة على الشارع وعلى سطوحها والأرصفة المحيطة بالطرق حتى يصل الموكب إلى موقع الساعة القديمة، ويتجه شمالاً إلى طريق حماة، والازدحام باقٍ على حاله بين نوبات المزاهر ورنين الصنج وقرع الطبول وإنشاد المريدين والأتباع، وعند العصر تؤدي المواكب الصلاة عند مسجد خالد بن الوليد،وبعدها تخرج من المسجد متجهة إلى شرق البلد نحو باب تدمر حيث يقيم الشيخ (سعد الدين الجيباوي)" الدوسة " وهي مظهر من كرامات بعض الطرق الصوفية إضافة إلى "ضرب الشيش" وتقوم هذه العملية على ثقب الخدود أو أجزاء أخرى من الجسم بواسطة شيش (نصل حديدي مروّس) دون أن تخرج أية نقطة دم أو ضرب السيف ويصف الكاتب الراحل (رضا صافي) طقوس ضرب السيف في خميس المشايخ كما عايشها قائلاً:

"يأذن الشيخ لواحد (معين) من مريديه بأن يأخذ سيفين مهيَّئين معه فيركز مقبضيهما على الأرض وينحني عليهما واضعاً رأسيهما في جانبي بطنه ويعلو ظهرَه زميلٌ له فيدحَّه برجليه ثم يقولون أن السيفين يغوران في البطن وربما قد ينفذان من الظهر "[١].

---

(١) على جناح الذكرى، تأليف رضا صافي، وزارة الثقافة / دمشق ط ١ ١٩٨٦ .

جب الحظوظ في قلعة حمص

ومن المظاهر الفولكلورية التي ارتبطت بخميس النبات في حمص استطلاع الفأل في أعلى القلعة في جبّ يعرفه أهل المدينة باسم "جب الحظوظ".

«وقبل التحضير لخميس النبات والصعود إلى البئركان أطفال الأحياء المحيطة بالقلعة والفتيات منهم بخاصة يشكلون جماعات ويمرون على البيوت لجمع الزهور وهم يرددون:

أعطونا مــن زهــوركم　　　حتى النبي يزوركــم

سبع طبول وسبع زمور　　　لفاطمة بنت الرسول

ثم يصيح أحدهم: الجاجي (أي – الدجاجة - في اللهجة الحمصية) عالسطوح بتعطونا وإلا بنروح؟ فإذا أعطتهم ربة الدار الزهور انصرفوا إلى الدار التي تليها وإلا هجوها بقولهم:

جاجي فوق جاجي فوق جاجي　　　صاحبة الدار غناجي غناجي

وبعد أن يجمعوا الزهور تقوم الأمهات بوضعها في أوعية مكشوفة واسعة ثم يصببن عليها الماء النقي ويضعنها قبل الغروب بقليل على الأسطحة تحت النجوم لتضيء عليها ومن المعروف أن للنجوم علاقة مباشرة بالحظوظ حسب المعتقدات الشرقية القديمة. وفي صباح الخميس يقوم الأهالي بغسل وجوههم والمسح على صدورهم من ماء الورد المنجَّم أي الذي تعرَّض لنجوم السماء، وكان هناك اعتقاد أن الاغتسال بماء الزهور يفيد في إطالة الشعر بالنسبة للفتيات ويمنع رمد العينين وأن مريم العذراء وفاطمة بنت الرسول تلامسان تلك المياه وتباركانها»[١].

---

(١) من لقاء أجراه المؤلف مع الباحث محمد فيصل شيخاني بتاريخ ١٠ / ١٢ / ٢٠٠٧ .





وكان احتفال خميس النبات يبدأ ضحى يوم الخميس ويستمر حتى غروب شمس ذلك النهار حيث تؤم المكان وفود الناس من أحياء حمص كافة يحملون معهم ما يحتاجونه من أطعمة وأشربة ويجلسون شرق المقبرة بشكل مختلط لتناول أطعمة وأنواع من اللحوم والنباتات كان القدماء يستخدمونها في

أعيادهم الزراعية كالبيض المسلوق والخس وبعض البقوليات وتعتبر بعض هذه الأطعمة ذات دلالات ورموز – في الميراث الشعبي – لكثير من الأمم. فالبيض مثلاً يعتبره دارسو الميراث الشعبي متصفاً بالخصائص التي ترمز للأرض أو الحياة أو مستقر الروح، أما الخس فيمثل رمزاً للابتهاج بالحياة النباتية الجديدة الذي ينتاب الإنسان عندما يزدرده وقد يتفق هذا التفسير الافتراضي مع ما يقوم به الناس بعد أكلهم الخس إذ يصعدون إلى القلعة من أجل معرفة الفأل ولعل الطريقة المتبعة في هذه الممارسة تتطلب الدراسة أيضاً، قبل كل شيء المكان يسترعي الانتباه لماذا هو بئر في قمة تل وليس مكاناً آخر، وربما كان من المفيد أن نتذكر أن " حجرة الزقورة " في بلاد بابل والتي كانت تعلن فيها المصائر بمناسبة احتفال "الأكيتو " تشغل أعلى نقطة في البناء " الطابق السابع " وضمن هذا المكان المشرف على المدينة بأكملها يتم استشراف السمات الغالبة على السنة، كذلك في حمص، وعلى سطح القلعة يتم الاحتفال المماثل في أعلى مكان في المدينة ويمكن مقارنة هذه الظاهرة - أي بئر الحظوظ في قلعة حمص - بعادة إيرانية تقدم لنا حالة موازية بمناسبة عيد النيروز (وهو رأس سنة ربيعي).

يحاول الناس عشية آخر أربعاء في السنة معرفة فألهم وتقوم إحدى الطرق المتبعة على رمي أشياء شخصية في جرة، ثم تُخرج منها صبيحة الخميس، ويقرأ الفأل في ديوان حافظ الشيرازي الذي يفتح دون تحديد فيشير المقطع الذي يفتح الكتاب عليه إلى فأل صاحب الشيء الذي تم إخراجه، فالجرة هي معادل مناسب للبئر أو للخزان الأرضي، والشيء الذي يوضع فيها يعادل الحجرالذي يُرمى في بئر قلعة حمص، وكون الشيء الذي في الجرة يمثل صاحبه يؤكد تفسيرنا للعلاقة بين الحجر والشخص الذي يلقيه، أو الشخص الذي يلقى الحجر باسمه.



ويمضي المحتفلون نهارهم ما بين هرج ومرج حتى يحين وقت العصر حيث يصعدون لاختبار في (بئر الأماني) أو (بئر الحظوظ) فيجتمعون حولها ويلقون فيها الحجارة وهم يضمرون الأمنيات السعيدة لحياتهم القادمة، فهذا يتمنى أن يأتيه ولد، وتلك ترغب أن يكون مستقبل ولدها مشرقاً وتلقي بحجرها في غياهب الجب فإذا سمعت له صدى تفاءلت خيراً واطمأنت إلى مستقبل ابنها وإن خبا الصوت ولم تسمع صدى الحجر تيقنت من شقاء أيامه هذا العام، ويشارك الجميع في هذا العيد الفولكلوري الفريد آملين بحياة مزهرة ومستقبل أخضر لمقبلات الأيام

وقد ظلت أخمسة الربيع قائمة حتى بداية عهد الرئيس (أديب الشيشكلي) في سورية عام١٩٥٣ م الذي منع الاحتفال بها بموجب قرار رئاسي لأنه كان يكره كل ما يرمز إلى التقاليد والتراث، ويطمح إلى عصرنة سورية على غرار ما فعل كمال أتاتورك في تركيا وبهذا انتهى هذا العيد الفولكلوري المحبب والفريد من نوعه في العالم العربي والإسلامي.

الفصل التاسع

يوم الأربعاء في حمص... عيد فولكلوري بلا طقوس!

النكتة شكل من أشكال الفكاهة التي تعتمد على الكلمة المقروءة أو المسموعة في السخرية من واقع غير مرغوب فيه بالنسبة للشخصية الواعية وبشكل يجنب راويها الحرج وتبعات الحياة الجدية، وهي لون من ألوان الإبداع الشعبي الجماعي غالباً ما يتم ابتكارها في جلسة سمر شعبية أوفي موقف طريف.

وتدل لفظة النكتة بمعناها اللغوي على "إحداث حز أو أثر في الشيء فيقال " نكت الأرض بقضيب أو بإصبع أي أثَّر فيها "والنكتة كالنقطة من بياضٍ في سواد أو سوادٍ في بياض "ومن المجاز" جاء بنكتة وبنكت في كلامه وفلان منكت ونكَّات[١].

وتقوم النكتة والفكاهة في جو الهزائم والنكسات بدور ايجابي فتكشف العيوب والأخطاء كما تقوم بدور سلبي فيهرب الإنسان من خلالها من واقعه الحرج ويتخلص من حالات القلق النفسي والخوف ويندفع بواسطتها إلى التعالي على واقعه المرفوض كما يشير علماء النفس والمجتمع. ومدينة حمص السورية هي إحدى المدن التي ارتبطت منذ مئات السنين بالنكتة وروح الدعابة ارتباطاً وثيقاً فما إن تُذكر هذه المدينة حتى يُذكر "يوم الأربعاء" أو ما يسميه البعض بـــ (يوم الجذبة الحمصية) الذي يحتل مكانة خاصة في

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، ١٥ مجلداً، بيروت ١٨٥٥ - ١٨٥٦، مادة نكت.

التراث الفولكلوري الشفاهي وفي المرويات الشعبية التي تجعل منه يوماً غير عادي ولكنه عيد هادىء بلا طقوس. وما إن يستقبل أبناء المدن الأخرى أو المجاورة لسوريا حمصياً حتى يبادرونه بالسؤال عن آخر نكتة حمصية.. والحمصي ابن نكتة يطلقها حتى على نفسه ليتغلب بها على مشاق الحياة وأعبائها الثقيلة تأكيداً للقول المأثور (إن شر البلية ما يُضحك).

فما هي قصة حمص مع يوم الأربعاء الذي تشتد فيه خفة الظل الحمصية وتزداد فيه درجة الجدبة التي ينسبها الحمصيون إلى مراتب الصوفية، إلى الحد الذي دفع أحد المولعين بالانترنت إلى تخصيص ركن خاص ليوم الأربعاء وللنكات والطرائف التي تُنسج حول الحمصيين فيه، وأغلب الظن أن ذلك الشخص "حمصي" أو يمت لهذه المدينة بصلة لأن الحماصنة فيما يبدو يستعذبون إطلاق النوادر والنكات على أنفسهم لإزالة الحواجز النفسية مع الآخرين.

وإذا كان لابد من وجود نار لمثل هذا الدخان الكثيف الذي وصل إلى أقاصي الدنيا فلابد أن نجده في بعض كتب التاريخ وبين صفحات الماضي فيما قيل عن أجدادنا وربما عن أحداث معينة ترتبط بشكل أو بآخر بهذه المقولات.

فها هو ابن عبد الله المقدسي (توفي عام ٩٩٠ ميلادية) يقول: (حمص ليس بالشام بلد أكبر منها، وفيها قلعة متعالية عن البلد تُرى من خارجها. أكثر شربهم من ماء المطر ولهم أيضا نهر، ولما فتحها المسلمون عمدوا إلى الكنيسة فجعلوا نصفها جامعاً عنده بالسوق قبة على رأسها شبه رجل من نحاس واقف على سمكة تديرها الأرياح الأربع وفيه أقاويل لا تصح والبلد شديد الاختلال متداع إلى الخراب والقوم حمقى)[١].

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، محمد بن احمد المقدسي تحقيق غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٠.

ووصف شمس الدين الدمشقي في القرن الثامن الهجري حمص بعد ذلك قائلاً: (من حسن بناء حمص أنه لا توجد بها دار إلا وتحتها مغارة أو مغارتان وماء ينبع للشرب فهي مدينة فوق مدينة وأهل حمص يوصف عامتهم بقلة العقل ويُحكى عنهم حكايات شبيهة بالخرافات).



أما القول الأخطر فهو لياقوت الحموي (١١٧٩- ١٢٢٩) الذي زار حمص فأصابه دوار من شدة رياحها حتى ظن أنه قد أصيب بلوثة من جنون فقال في (معجم البلدان): " ومن عجيب ما تأملته من أمر حمص فساد هوائها وتربتها اللذين يفسدان العقل حتى ضُرب بحماقتهم المثل... "[١].

ويلاحظ أن هناك شبه إجماع من المؤرخين على ما وصفوا به أهل حمص وقد يكون أحدهم نقل عن الآخر كما هي عادة القدماء منهم ولكن ما

---

(١) معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، دار الكتب العلمية، بيروت ج ٣ ص ٣٤١.

يدعو للغرابة هو الرأي بحد ذاته، وقد أشار المؤرخ المعاصر أحمد وصفي زكريا في كتابه (جولة أثرية في بعض البلاد الشامية) إلى هذا التحامل من المؤرخين القدامى قائلاً:

(... إن أهل حمص كما أعرفهم لا يختلفون في الفطانة والنباهة عن بقية الشاميين وحمص كانت وما برحت تتجب من الشعراء والفضلاء عدداً غير يسير.. ووددت أن أصل إلى السبب الذي حدا بهؤلاء المؤرخين الجغرافيين وغيرهم لترديد هذه الوصمة التي وصلت ذيولها إلى عهدنا، ومما شغل بالي أيضا ً خرافة أن حمص مطلسمة وأن العقارب والحيايا لا تلسع فيها وان لتربتها خاصية تشفي من لسع العقرب وتمنع دخولها..)(١).

تيمورلنك وأهل حمص

وثمة رواية أقرب للمعقول في تفسير ما يُسمى بظاهرة الأربعاء الحمصي لم ترد في أي كتاب من كتب التراث والرحلات ولكنها تُروى على ألسنة العامة تقول هذه الرواية أنه عندما غزا تيمورلنك سورية وفي طريقه إلى حمص اجتمع أهلها واتفقوا على ارتداء أزياء غريبة وتعليق القباقيب على صدورهم كنياشين، وحجب الوجوه بالغرابيل واعتمارالجرارالمكسورة. واستقبال الفاتح البطَّاش بسعف النخيل وأغصان الزيتون وراحوا يهتفون دون توقف (أهلاً وسهلاً بملكنا الجديد) ولما عرف ذلك من المترجمين فرح بهم فرحاً شديداً وجلس على منصته يتقبل هدايا الحماصنة وولاءهم، وقد وجد تيمورلنك ومستشاروه الذين فاجأهم تهريج «الحماصنة» ورسم على وجوههم علامات البسمة والدهشة، في غزو مدينة كهذه مضيعة للوقت ومهزلة

---

(١) جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، أحمد وصفي زكريا، دار الفكر، دمشق ط٢ ١٩٨٤م ص ١٨٧.

تاريخية، وهكذا كُتب للحماصنة «حياة جديدة» وتاريخ جديد مع الطرافة وخفة الدم.

وهكذا سلم أهل المدينة من أذى تيمورلنك وحدهم دون كل البلدان التي فتحها بذكائهم وحسن تصرفهم، ولمَّا وصل الخبر إلى منافسيهم تملكهن الغيض والحسد وراحوا يقولون (جدبها الحماصنة على تيمورلنك يوم الأربعاء فعفا عنهم) وكان يوم الأربعاء تاريخ الحدث حيث أمضى هناك سواد الليل قبل رحيله إلى دمشق التي أذاق أهلها الويلات كما تذكر المصادر التاريخية.

ويحكي التاريخ أيضاً مجموعة قصص تُساق من خلالها أسباب مختلفة، تبرر المكانة التي يحظى بها يوم «الأربعاء» في حمص، والأسباب التي جعلته يرسخ في الذاكرة الشعبية السورية على أنه «عيد الحماصنة»، وأبرزها أن الأربعاء كان عيد أحد آلهة الرومان وكان يحتفل به في منطقة الفرقلس التابعة لحمص. وظلت له مكانة خاصة في قلوب الحمصيين.

وفي ظل استمرار قبول «الحماصنة» لما قيل ويقال عنهم من طرائف، يستمر السوريون حتى اليوم في إلباس «الحمصي» طربوش «النكتة» الذي يُلبسُه اللبنانيون لأبو العبد والمصريون للصعيدي والخليجيون للحشاش. ولا يبذل الحماصنة أي مجهود لتغيير هذه الحال، حتى أنهم في أحيان كثيرة يصنعون النكات عن أنفسهم ويروّجونها. والأجمل من هذا كله أن «واحدهم» يبدي سعادة واضحة إذا ما سئل عن سبب قبول الحماصنة لنكات تصفهم بالسذاجة والغباء ويقول: (حديثهم عنا غيرة، وقبولنا له علامة تفوقنا).

وعلى رغم وجود الكثير من النُكات عن «الشوام» (أهل الشام) و«الحلبيين» (أهل حلب) و«الأدالبة» (أهل إدلب)، فإن تولي حمص لعرش النكتة أمر لا يمكن إنكاره لشدة تنوع هذه النكات وعدم تسببها بأي نوع من الحساسية. فالناس يروونها بحرية وبصوت عال. وقد يضطرون لخفضه قليلاً عندما تتوجه نكاتهم نحو الشوام والحلبيين أو أهل الساحل (منطقة الساحل

السوري). وإن كانت النكات التي تُروى عن الحمصيين تستهدف في معظم الأحيان ذكاءهم وطرافتهم فهذه المدينة صدّرت للعالم ثلاثة أباطرة تسنموا عرش روما وسيدتين هزتا العالم القديم هما (جوليا دومنا) و(زنوبيا) كما تسلم رئاسة سوريا في تاريخها المعاصر أربعة رؤساء من حمص ويوصف أهل هذه المدينة بالنباهة والذكاء والفطنة على عكس ما يُشاع.



ويروى أن الرئيس السابق المرحوم هاشم بك الأتاسي ذهب ذات مرة إلى اليمن ليصلح بينها وبين المملكة العربية السعودية في عام ١٩٣٦ م وبعد أن تم الوفاق تقدم وزير يمني وسأله: هل صحيح يا فخامة الرئيس أن في دولتكم مدينة اسمها حمصُ أشتُهر أهلها بالخفة والخرف وسوء الحال؟ ابتسم المرحوم هاشم الأتاسي وقال نعم يا عزيزي يوجد لدينا في الشام مدينة اسمها حمص وعلى جناحها الشمالي مدينة اسمها حماة وعلى جناحها الجنوبي مدينة اسمها دمشق ودمشق وحماة قيسيتان (أي من عرب الحجاز) تشنّعان على أبناء حمص اليمانيين (أي أصلهم من اليمن) والقضية كلها قيسية يمانية أي سياسة في سياسة، عندئذ لم يدر الوزير اليمني كيف يرد فهرب واختلط بالوفود دون أية كلمة.

الفصل العاشر

عادات شائعة في بادية حمص

تتمايز العـــادات والتقاليد بتمايز المجتمعات التي تنتمي إليهـــا واختلاف مكوناتها الثقافية والحضارية، وتكاد بعض هذه العادات والتقاليد أن تكون مادة ثرة لدراسة ما يُسمى علم نفس الشعوب وتحليل أنماط تفكيرها وموروثاتها،وإذا كان الكثير من هذه الموروثات قد دخل في زوايا النسيان مع التحولات الحضارية التي طرأت على حياة الناس والمجتمعات في العقود الأخيرة فلا يزال هناك بعض منها يجاهد في البقاء وخاصة بالنسبة للبادية السورية فـــ" الجيرة" و" الوساقة" و"" الخوي" و" الثأر" وغيرها مسميات لعادات قبلية قديمة ولكنها لا زالت تعيش في حياة بدو مدينة حمص..وإذا كانت بعض هذه العادات والتقاليد كالثأر والغزو تتخذ مظهراً سلبياً يعبِّرعن الجهل والعصبية، فإن بعضها الآخر يدل على أخلاق البدو السامية في حفظ الذمام وإكرام الضيف إلى أقصى حدود الكرم والغيرة على العرض، والتحلي بالإباء والشمم والوفاء ونرى ذلك مطبوعاً في أقوال أهل بادية حمص وأشعارهم وأمثالهم ومتجلياً في عاداتهم اليومية وأخلاقهم الموروثة.

و" الجيرة عند البدو من المحرمات التي يدافع عنها البدوي بكل ما يملك ولو كلفه ذلك ماله ودمه، ضعيفاً كان أم قوياً، رجلاً كان أم امرأة، حتى ولو كانت هذه المرأة وحيدة لا رجل لها، فلبيتها حرمته وحصانته أمام أقوى الناس وأعزهم شأناً وتُسمى الجيرة الوجه لأنه أكرم جزء في جسم الإنسان"(١).

---

(١) البدو بين واقع حالهم وما كُتب عنهم، حسن الخضير المقبل، دار الإرشاد حمص، ط٢ / ٢٠٠٧م. ص ١٠٦.

فالذي يعتدي على من أَجرتَ فكأنما لطمك على وجهك وعار على من انتُهكت جيرته وعار على أهله وعشيرته إذا لم يأخذ بحقه من المعتدي، فكيف والعرب بَدْوَهَمْ وحَضَرَهُمْ اشتُهروا بإغاثة الملهوف وعوذ الجاني وغوث الطريد، وتاريخ العرب مليء بمثل هذه الأخبار، إذ كانت لطائم النعمان (أوعية المسك) تسير محمّلة بالبضائع من بلاد العراق إلى اليمن في كل عام لا يرافقها جند ولا تحميها قوة، وإنما كانت تُجار من قبل زعماء العرب فمنهم من يجيرها على كنانة ومنهم من يجيرها على مضر ومنهم من يجيرها على أهل الشيح والقيصوم (ويعنون بها كل العرب).

أشكال الجيرة

حق الجيرة:

وهى من الجوار أي الحماية لأن الجار يحتاج إلى حماية من يجاوره. فإذا اختلف اثنان على مال أو أي شيء آخر قال الذي يعتقد أن حقه مهضوم" هذا على جيرة فلان" أو هذا بوجه فلان فيصبح الغرض المتنازع عليه في حمى هذا الشخص، وإذا ما تعدّى أحد على ما أُجير فإن صاحب الجيرة الذي أجير إليه الغرض يملك حق محاكمة المعتدي على جيرته.

والحل من الجيرة أمر متعارف عليه حتى الآن عند البدو، فعندما يعجز المجير عن القيام بالتزامه تجاه من استجار به كأن يكون المُستجار منه قوياً لا طاقة له به، أو أن يكون المُجار قد أخلَّ بالشروط المتفق عليها للجيرة ففي هذه الحال يقول المجير (هذا حدي وحديدي عن جيرتك يا فلان) موجهاً كلامه للشخص الذي أجاره، وحينها يبحث المستجير عن رجل آخر في العشيرة يجيره أو يرحل إلى عشيرة أخرى، وقد يطلب المستجير نفسه من المجير أن يتحلل من جيرته له، فيقول له: (انفض عني) وهذا حين يرى أن المجير عاجز عن حمايته، أو حين يرى منه تحيزاً لخصمه.



و" للجيرة (الوجه) أشكال متعددة وهما كلمتان مختلفتان لفظاً ومتفقان معنى - فالجيرة هي الوجه في أغلب الأحيان و" الوجه" هو" الجيرة" كذلك فالذي يقول لك (أنا بوجهك) فهو في جيرتك، والذي يلتجأ هارباً من عدوه إلى بيتك هو في جيرتك، ويرد الوجه أو الجيرة بأشكال مختلفة منها" الوجه" عن بعد كأن يقول أحدهم(أنا بوجه فلان) وربما لا يكون فلان هذا حاضراً ولكن عليه القيام بجميع الالتزامات المترتبة على" الجيرة" بعد علمه بذلك. وهناك الوجه عن قرب كأن يطرد الخصم خصمه فيستجير المطرود بأقرب الناس إليه ويقول له : (أنا بوجهك) ويعني أنا بجيرتك. وهناك جيرة النسب وهو أن يجير الرجل ابنة عمه أو قريبته حين يتقدم للزواج منها من هو أبعد نسباً عنها فيقول أمام عدد من الرجال: (اشهدوا أن إبنة عمي مجيورة) فلا يجرؤ أحد عندئذ على طلب يدها وسيان وافقت هي على الجيرة أم رفضتها وعليها وعلى أهلها القبول والطاعة "[١].

---

(١) مصدر سابق.



الثأر والدِّية

الثأرعادة قديمة متأصلة لدى البدو، منذ ما قبل الإسلام، وقد نهى الإسلام عن الثأر، إلا أن ذاك النهي لم يبطل تلك العادة، لأن البدو يسلكون وفق أعرافهم وتقاليدهم، ووفقاً لها يُعَدُّ عدم الأخذ بالثأر جبناً، والجبن صفة ذميمة جداً عند البدو، وقد يتدخل القضاء الرسمي في حوادث القتل التي تحدث بين البدو، ويصدر فيها أحكامه؛ إلا أن كثيرين منهم، لا يقبلون بهذه الأحكام بل يظلون ينتظرون خروج الجاني من السجن للانتقام منه أخذاً بالثأر، وقد يعمدون إلى قتل قريب من أقربائه للغاية ذاتها.

والأخذ بالثأر عند أهل البادية السورية مشروع شأن عادات البدو في كل مكان، ولا حرج من الأخذ بالثأر حسب الشريعة الإسلامية فالعين بالعين والسن بالسن، يقول الله تعالى: **{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}**(١)

(١) سورة المائدة - الآية ٤٥.

ويقول تعالى:**{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}**(١).

وإذا مات صاحب الثأر قبل أن يثأر لنفسه من خصمه، ورث أولاده الثأر من بعده.

وعندما يثأر الرجل لنفسه ، ويقتل قاتل أبيه أو أمه أو أخته أو أي شخص آخر، فإنه يشعر بارتياح عظيم ويغمس منديله أو ثوبه في دم القتيل ثم يرفع المنديل أو الثوب على عصاه أو سيفه أو بندقيته.

وإذا كان الثأر ليس من الخصال الحميدة للمجتمع العشائري في بادية حمص كما في غيرها فإن هذا لا يمنع من القول أنه من الخصال المميزة لهذه المجتمعات بحكم طبيعة حياتها وظروف معاشها، وكما ينجدك البدوي إذا استنجدت به والتجأت إليه وطلبت حمايته، فإنه بالمقابل لا يصبر عن الأخذ بثأره إذا أسأت إليه، فإذا قتل رجل من عشيرة رجلاً من عشيرة أخرى قامت العداوة بين العشيرتين، ونشبت الحروب بينهما حتى تقوم" الموتورة" منهما بأخذ ثأرها ولا تنفك حتى تقتل من الأخرى من هو كفؤ لقتيلها أو يتصالحوا على الدية، وينطبق ذلك على الأفراد أيضاً، فالبدوي لا ينام على ضيم ولا يستكين لظلم، وقد يصبر على ثأره أربعين عاماً ويقول حين يأخذ بثأره: (إنني تعجلت أخذه) كما يقول المثل الشعبي" وربما استنكر أهل الحضر هذه العادة في البداية، لكن من يطلع على شؤون البادية يعلم أنه لولا وجود هذه السنة عند البدو لغدت البادية دار حرب دائمة، لأن سنة الدم تصد المجرمين والأشرار عن جرائم كبرى،" فالبدو يتجنبون القتل حتى أثناء الغارات والغزوات ما أمكنهم ذلك لئلا تـنزل بهم الضربات الهائلة التي تأمر بها

---

(٢) سورة البقرة – الآية ١٧٨.

شريعة الانتقام، وهي الشريعة التي تجعل البيداء في أمن وسلام يسافر فيها المرء غير خائف من صولة أشرار البدو وإن سلبوه ماله"[١].

الوساقة والخوي

ومن العادات البدوية التي لا تزال منتشرة في البوادي(الوساقة) وهي إحدى طرق تحصيل الحقوق عندهم يلجأون إليها حين يكون لأحدهم على الآخر شيء من دين أو حلال أنكره عليه أو ماطل به، ولم تجدْ الوسائل السلمية في الحصول عليه، عندها يلجأ الدائن أو صاحب الحق إلى الإغارة على إبل خصمه أو غنمه فيأخذ منها ما يساوي ماله عنده، ثم يطلبه للجلوس أمام القضاء عند أحد العوارف للفصل بينهما.

ويقوم الطرف الأول بوضع ما أخذه في وجه أقرب شخص يلتقي به، أو أقرب بيت يصل إليه من الحي ولا يحق له الاحتفاظ به وإلا عُد مغيراً ناهباً حكمه حكم العدو الغازي.

والوساقة أمر مشروع لدى البدو ولكن لها شروط إذا لم ينظر إليها (الواسق) بعين الاعتبار عُد عمله سرقة وجُوزي من أجله، ويُشترط أن يكون المال الموسوق ملك الرجل المدين بالذات أو ملك واحد من خمسته وأن يُشهد الواسق على عمله أشخاصاً آخرين، وفي حالة الدين أو التجارة الاعتيادية يوسق مال المدين بالذات، وأما في مسائل الدم كالدية والسرقة والعداية فيجوز وسق مال أيٍ كان من خُمسة الرجال المطالب ويتقاضى الفريقان(الواسق وصاحب المال الموسوق) لدى الزيود أو أي قاضي من قضاة العرب يتفقان عليه، فيحكم هذا بمشروعية الوساقة التي حصلت أو بعدمها، وبالطريقة الواجب عليهما اتباعها لتسوية الخلاف.

والأشياء التي لا يجوز وسقها في عُرف البدو:

---

(١) عشائر بلاد الشام - أحمد وصفي زكريا - جزءان –دمشق ١٩٤٥ -١٩٤٧.

١. الخيول الأصيلة

٢. السلاح

٣. الثياب الشخصية

٤- الدابة التي ينقل المرء عليها الماء لبيته.

وإذا وسق المرء شيئاً من هذه الأشياء يغرَّم ويفقد حقه الأصلي ولا يجوز وسق مال الضعيف حتى ولو كان مديناً وإذا وسق أحد مال ضعيف نازل وجب على مضيفه استرداد ما تم وسقه منه ويُغرَّم الواسق غرامة(تقطيع الوجه) وفي حالة الوسق لا يجوز تغيير الوسم المرسوم على الدابة الموسوقة وإذا غير الواسق الوسم فانه يُغرَّم ويجوز في عرف البدو وسق الدواب والأموال المنقولة على الطريقة المتقدم ذكرها غير انه لا يجوز في نظرهم وسق البشر.

وهناك حق الصحبة أو(الخوي) وهي من عادات البدو الإيجابية التي زالت مع التحولات التي شهدتها حياة البداوة وهي قيمة إنسانية كبرى حضَّ عليها الإسلام والشرائع السماوية عامة لأن الله عز شأنه أوصى بالصاحب والرفيق بالسفر والبدو يقدرون هذه الصحبة بفطرتهم، فالصاحب في الطريق يمنع صاحبه ما يمنع منه ماله ونفسه ولو لم يكن بينهما سابق معرفة وإنما جمعتهم المصادفة في الطريق فحسب والتخلي عن الصاحب(الخوي) أمرمشين لا يقبل عند الكرام منهم ولا يفعله إلا كل جبان ويسمون من تخلَّى عن رفيق سفره(سويد الوجه) أو أسود الوجه. وكلنا يذكر قصة البدوي الذي كان يسير على فرسه في الصحراء فوجد رجلاً تائهاً منهكاً من التعب والجوع فأطعمه وأسقاه وأردفه وراءه وبعد مسافة من المسير وثب الرجل على البدوي ورماه أرضاً ومضى على الحصان وهنا نادى عليه البدوي أرجوك يا خوي لا تبلغ أحد بالذي فعلته بي، وهنا استغرب الرجل وقال له لماذا:؟ فقال البدوي كي لا تطير النخوة من رؤوس الرجال؟





الباب الثاني

معتقدات شائعة

في محافظة حمص



الفصل الأول

معتقدات التشاؤم في حمص... دلالات وصور!

تحفل ذاكرة التراث الشعبي في حمص بالكثير من صور التشاؤم والتطيّر من كل " سانحة وبارحة " وأكثر أشكال المعتقدات التشاؤمية السائدة في التراث الشعبي الحمصي ما يتعلق منها بأيام الأسبوع التي يتم التمييز فيها بين أيام سعد وأيام نحس، فأيام السعد تتوافق مع الخير وحُسن الطالع، وتعم النعمة فيها وينتشر السرور، فيُقدم الناس فيها على ممارسة أعمالهم الزراعية والتجارية والصناعية، ويقبلون بكل اطمئنان وبصورة خاصة على صناعة ملابسهم، وعلى إتمام مراسم زواجهم، ومن أمثلة ذلك أن الثياب التي تُصنع نهار الاثنين تجلب الحظ وطول العمر لصاحبها كما يعتقدون " الاثنين فصّل ولو كان بالدين " وكان بعض العامة في حمص ينهون عن غسل الثياب يوم الاثنين وقبل صلاة الجمعة ويعتبرون ذلك نذير سوء يحيق بالدار وأهلها، وعلى العكس من ذلك من يُولد في هذين اليومين يلحقه الحظ السعيد، والخميس هو أيضاً يوم مبارك فالأعمال التي تتحقق فيه يحالفها الحظ والنجاح ويستبشر الناس فيه خيراً للملبوس والزواج " الخميس فصّل وقيس" و" تُعد أيام النحس من وجوه الزمن الظلامية إذ ترتبط بسوء الطالع ويعم فيها الحزن والغم والهم ويتجنب الناس خلالها تحقيق أي عمل مهم"[١].

وفي حمص يتطيّر الناس من صناعة الملابس يوم الثلاثاء " الثلاثة وراثة " أي أن الثوب المفصل نهار الثلاثاء يموت صاحبه ويتركه لغيره، ويمثل نهار الأربعاء المشاكسة والمعاكسة والإخفاق في العمل (متل الأربعا بنص الجمعة)

---

(١) دراسة بعنوان "الوجود البشري والزمن في الخطاب الثقافي الشعبي"، بقلم زاهي ناضر، مجلة الحداثة السنة الثالثة شتاء ١٩٩٧ العددان ٢١و٢٢، ص ١٣٠.

ويحمل الحزن والهم (الأربعا دمعة) (الأربعاء يوم وحش والرزق فيه منكمش) كما قال الشاعر القديم ومن يولد في هذا اليوم يكون رديء العيش وسيء الحال ويظن بعض العامة أن من يضحك نهار الجمعة سوف يبكي نهار الأحد، ويعتقدون أن الثوب الذي يُفصّل يوم السبت يكون مصيره الحريق "السبت حريق"، ويلاحظ أن الكثير من هذه المعتقدات تركّز بالدرجة الأولى على مسألة تفصيل الثياب وصناعتها ولا عجب فهناك كما هو معروف تبادل رمزي متواصل بين الإنسان وملابسه، ويجب ألا ننسى أن أدوات ومنتجات الحياكة ترمز إلى المصير وأنها ارتبطت منذ القديم بعقائد أسطورية وبطقوس سحرية متعددة، أضف إلى ذلك أن الثياب أقرب الأشياء إلى الإنسان وأكثرها دلالة على أفراحه وأحزانه وأعياده ومكانته، لذلك "يرى العامة أن أقرب الأشياء إلى المرء أقربها إليه أيضاً مجلبة للخير أو للسوء "[١].



خمسة وخميسة

ومن مظاهر التشاؤم في التراث الشعبي الحمصي ما يتعلق منها بالحيوانات وخاصة لدى أبناء الأرياف والقرى كالتشاؤم من نباح الكلب إذا

---

(١) مصدر سابق - ص ١٣٠.

كان صوته شبيهاً بعواء الذئب والدجاجة التي تغيّر صوتها، وكذلك القط الذي يموء ليلاً مُصدِراً صوتاً كبكاء الطفل وتفسيرذلك أن الحيوانات تلجأ إلى تنبيه أصحابها عندما ترى الأشباح فيتغير صوتها و" من مظاهر الإيمان بالخرافة لدى البدو تشاؤمهم من حنين الإبل مجتمعة وهي ليست بحاجة للمراعي أوالماء فلربما كان ذلك نذير شؤم بالنسبة لهم أو أنهم مقبلون على سنوات قحط، وكانوا يتشاءمون من عواء الكلب ومن انشلاع كسر البيت والهواء ساكن فلربما يحدث شيئ مكروه أيضاً "[١].

ويتشاءم أهل حمص مثل غيرهم من القطط السوداء إذ من المعتقد أن الشياطين تتقمص صورها، ولذلك يتجنبون الاحتفاظ بها في منازلهم، بينما نجد بعض الشعوب تتفاءل بالقط الأسود وتعتبره تعويذة لطرد الأرواح الشريرة.

ويتشاءم بعض الناس في المدينة والريف على حدٍ سواء من رقم خمسة لذلك يقولون "خمسة وخميسة" نسبة لعدد أصابع اليد الخمسة فهي ذات مدلول سحري في المفهوم الشعبي فيقال "خمسة وخميسة في عين الشيطان" أو "في عين العدو" أي اليد والأصابع مرفوعة في وجه الأشرار، و"يُعتقد أن الخمسة كانت علامة شؤم عند الشعوب الشرقية كافة ومنها نشأ القول "خمسة بعيون الشيطان" ورسم الكف بالأصابع الخمسة لطرد الشر والحسد، ويُقال أنه في اليوم الخامس من أحد الأشهر القمرية أخرج الله تعالى سيدنا آدم من الجنة وأصيب فيه قوم النبي يونس ورُمي النبي يوسف في الجب ورُمي النبي إبراهيم في النار"[٢].

---

(١) صور من الحياة الاجتماعية عند البدو: تأليف خالد عواد الأحمد، الناشر دار الإرشاد، ط ١ / حمص ٢٠٠٨ ص ١٩٨.

(٢) التصوير الشعبي، د أكرم قانصو، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب والعلوم، الكويت ، ص ٩٧.

أما إسلامياً فالرقم خمسة مبارك وعظيم لأن أركان الإسلام وأركان الإيمان خمسة وكذلك الصلوات المفروضة أيضاً.



ومن صور التشاؤم في مجتمع حمص الريفي منه على وجه الخصوص النهي عن اللعب بالمقص ليلاً إذ يعتقدون أن في ذلك نذير شؤم ودليل على حصول منازعات وشجار بعد المغرب،وهم لا يُخرجون ولا يُدخلون آنية النحاس من وإلى المنزل بعــد الغروب على سبيل الإعــارة أو الاستعارة، وكذلك السلّم الخشبي لأن ذلك باعتقادهم دليل شؤم وحصول مكروه لأحد أفراد العائلة، وكذلك يتطيّرون من عجن الحائض للعجين ومن مدّ يد الحائض أو النفساء والأيدي المبتلة أو الملوثة إلى مونة الدار من جبن وسمن ومكدوس ومخللات وغيرها، ويتطيّرون أيضاً من العين الحاسدة (الفارغة) لذلك ساد تعبير (عين الحسود فيها عود) ولذلك أيضاً يضعون في صدر الطفل طوقاً من الخرز الأزرق فيه خرزة زرقاء كبيرة على شكل كف من قطعة الشبّة خوفاً من الحسد والحسّاد أو يقومون بتحويطة الطفل وقراءة التخريجة وعبارات من مثل (بسم الله الرحمن الرحيم ثنيتك بالله- ثلثتك بالله- ربعتك بالله).

وسنخصص فصلاً لمعتقدات الحسد وإصابة العين في صفحات لاحقة من الكتاب.

الفصل الثاني

رزنامة الطقس في التراث الشعبي الحمصي

لعب الطقس منذ فجرالإنسانية دوراً كبيراً في صنع التحولات التاريخية، وصاغ علاقة المجتمعات البشرية والشرائح المجتمعية بالطبيعة وتغيراتها، ومن ذلك أن شعوب الأرض تنظر إلى الطقس بمشاعر ومواقف متباينة، مرتبكة بعض الأحيان فهم يحبونه للطفه وطراوته حيناً، ويخشون فيه انتفاضاته المدَّمرة حيناً آخر.. يمقتون المطر ويحلمون بالسير أثناء هطوله في اليوم التالي، يدرسون علم الأرصاد الجوية ويعلمون أن بمقدورهم التنبؤ بأحوال الطقس بمراقبة حركات الحيوان والنبات، يكرهون تأجيل رحلة نزهة بداعي المطر ومع ذلك تفيض قلوبهم فرحاً حين يتسبب الطقس بتجميد نشاط الناس.

ولئن كان البشر يفاخرون بظروف الطقس في مواطنهم الجغرافية فقد نظر الإنسان القديم إليه بوجل ورهبة، وعزا تقلباته إلى قوى خفية تأتمر بمشيئة الآلهة، وبدافع من رغبته في تحصين نفسه في مواجهة غضب الطقس ابتدع الإنسان القديم من الصلوات والابتهالات والقرابين عدداً لا يحصي تقرباً من هذه الآلهة والتماساً إليها لتنعم عليه بطقس يناسبه، وعبد آلهة الخصب والمطر والزوابع والرياح والشمس والرعد والبرق، وكشأن إنسان اليوم في سعيه لمعرفة طقس الغد من خلال أحدث وسائل التنبؤ الجوي، كان الإنسان القديم يتتبع مسلك الحيوانات وأصوات السماء أواستدارة أوراق الشجر، ورغم أن الطقوس الدينية التي أقامها لم تفعل فعلها في تحسين أحوال الطقس لكنها أوجدت أوقاتاً من الحيوية والنشاط، وحفظت لنا المكتشفات والرُقم والأرشيفات الأثرية الكثير من هذه الطقوس.

قمر لا يغيب

لفصول السنة في الذاكرة الشعبية دلالة إنسانية وطبيعية و" يُعتبر الشتاء فصل العزلة والانزواء والضيق: الشتاء ضيق ولو كان فرح وفترة الانتظار والتهيئة للعمل، ويُعد فصل الربيع فصل الخصب والتواصل مع الأرض، وموعداً للخروج من عزلة الشتاء والانطلاق إلى رحاب الطبيعة والرمز الأصيل للشباب "آه على قمرلا يغيب، وشاب لا يشيب، وربيع لا يخلص"[١] أما الصيف فهو فصل الحصاد والادخار والانشراح والانبساط "بساط الصيف واسع"

و" الصيف بَي الفقير". ويدل الخريف على حركة زوالية " إذا خرَّفت خرَّبت" وهو فصل الاستعداد للدخول في فترة الشتاء وإعداد التربة وزرعها.

تنقسم أقوال العامة حول فصل الشتاء المؤلف من تسعين يوماً إلي قسمين: الأربعينية "أو المربعانية" والخمسينية. الأربعينية هي القسم الأول من فصل الشتاء وتمتد ٤٠يوماً أولها ٢١ ديسمبر وآخرها ٣٠ يناير، وتُعد أشد أيام الشتاء قساوة "المربعانية " فحل الشتاء"، والخمسينية هي القسم الثاني من فصل الشتاء أي الخمسين يوماً الباقية من الفصل، وتمتد من أول فبراير حتى ٢١ مارس وفيها يبدأ الطقس بالتحسن وتنشط الدورة الزراعية.

أم الغيض

من المعتقدات الشائعة في ريف حمص وهي ذات أصل تاريخي ديني عادة الاستسقاء، فإذا انحبس المطر وأجدبت الأرض خرج شيخ القرية وهو يلبس عباءته بالمقلوب مع عدد من الرجال والنساء والأطفال، ليبدأ بالابتهال إلى الله والدعاء والناس يردّدون خلفه، ثم يقوم بعض الصبية بصناعة أم

---

(١) دراسة بعنوان "الوجود البشري والزمن في الخطاب الثقافي الشعبي"، بقلم زاهي ناضر، مجلة الحداثة السنة الثالثة شتاء ١٩٩٧ العددان ٢١و٢٢ ص- ١١٦.

الغيض، وهي على شكل إنسان من الخشب يفرد ذراعيه، يضعون عليه قطعة قماش على شكل الوجه، ويُلبسونها ثوباً لتصبح شبيهة بـــ "المآتا" أو فزَّاعة الحقول التي تُوضع لإبعاد الطيور والقوارض عن الزرع، ويحملونها ويجوبون بها شوارع القرية وهم يرددون: أم الغيض يا ربَّا.. عبَّي حواضنا ميَّا.. لَنغْسِل ونغتسل.. ونلبس ثوب أبو عبية...ويخرج الناس إليهم، ومنهم من يتبعهم ويردّد معهم، ومنهم من يردّد دعاء الاستسقاء وأدعية أخرى خلف شيخ القرية.



سعد السعود

في الرزنامة الشعبية الحمصية الكثيرمن المسميات الطريفة للمواسم ومنها "سعد السعود" الذي يوافق نهاية يناير، وفيه يقال "سعد السعود بيجَّمد التلج عالعود"، وفيه تتم عملية الكساح، أي تقليم دوالي العنب وزراعة "المقاتي"، أي الجبس والبطيخ والقرع، وهناك مثل شعبي في تلك الأيام - أيام سعد السعود - يقول: " إذا طلع الوحواح شق على أرضك يا فلاح، إذا ثمرو مغطي كدرو ابشر بخيرو وثمرو، وإذا ما غطى كدرو اقتل حالك بكدرو" و" الوحواح " نبات على شكل القصب إلا أنه رفيع وطويل الساق، ولفظة " شقْ "الواردة في المثل تعني زُر وكان

الفلاح دائم الخوف من مربعانية الشتاء، وهي تأتي بعد زراعة الحبوب، فإذا أتت أيام المربعانية أحلَّت الصقيع، وأتلفت المحصول أي البذور في الأرض، أما إذا أتت بالأمطار والثلوج فيكون الموسم خيراً وفيراً.

وهناك مثل شعبي يقول: إذا أقبلت آذار وراها وإذا أمحلت آذار وراها"، كما يُقال "مطرة من آذار تحيي الزرع البار واللي ما بار" ومن هنا نجد أن الفلاح يعقد أملاً كبيراً على شهر آذار. أما سعد ذابح فمعناه أن المطر يختزن في الأرض، ولذلك يقولون: إذا أمطرت أقبلت وان أمحلت أدبرت، وهنا تكون الحنطة قد ظهرت على وجه الأرض، و سعد بلع وفيه يغورالماء في الأرض، وتبدأ التربة بالجفاف على وجه الأرض، وعندها يظهر نبات الوحواح، ويقوم الفلاحون حينها بعزق وتطييب أرض الكروم وتبدأ عملية (الكساح) وهي كلمة سريانية تعني التقليم. وهناك أيضاً سعد الخبايا الذي يسبق فصل الربيع، وثمة مثل شعبي يقول : " بسعد الخبايا تتفتل الصبايا" أي يخرجن للمشاوير في الطرقات، وفي سعد الخبايا تبدأ زراعة الكرسنة والكمون...

أما العجائز فهي سبعة أيام، تبدأ في السابع والعشرين من فبراير وحتى الرابع من مارس، وسُمَّيت بهذا الاسم نسبة إلى قصة تُروى شفاهاً في بادية حمص تقول أن عجوزاً بدوية كانت تملك ناقة وكلبة وعندما اعتدل الطقس اطمأنت وقالت: راح شباط اللباط.. نويقتي عدلة وكليبتي وبرة وعديلتي رزمة"، وتعني بذلك أن الخير وفيروالزاد كثير، وعندما انقلب حال الطقس وراحت السماء تندف ثلجاً كثيفاً راحت العجوز تطعم الناقة من الطحين، وعندما مضت الأيام السبعة كان الطحين قد نفذ وماتت الناقة والكلبة والعجوز، لذلك سميت هذه الأيام بالعجائز،وهي قصة حقيقية وقعت في بادية حمص منذ مئات السنين ويتداولها البدو حتى الآن في جلساتهم ومسامراتهم كلما جاءت أيام العجائز وقد روت لي هذه الحكاية والدتي فرحة الخضير (٧٥ عاماً) التي عاشت أكثر من خمسين عاماً في (خربة الفواعرة) في بادية حمص حيث سمعت القصة التي مر ذكرها.

الفصل الثالث

مظاهر السحر و الخرافة

وُجد المعتقد الشعبي والإيمان بالخرافة منذ وعى الإنسان ذاته، وقد انتشرت هذه الظاهرة لتعبرعن تكيُّف الإنسان مع البيئة الغامضة في حدود ثقافته ووعيه، ويكشف المعتقد الشعبي جوانب التفكير السلوكي للشعوب والأمم لأنه يحمل إرثها وينطق بحضارتها وأصالة ما فيها.ويُعد لجوء الناس للخرافة دليلاً على أن العقل الجمعي للمجتمع يسوده التفسير الخرافي للبحث عن إجابة سهلة

ويستجيب الناس لمظاهرالخرافة عندما يشعرون بالتهديد من المجهول مثل مرض خطير أو مشكلة اجتماعية ليس لها حل فالغريق يتعلق بقشة – كما يقولون - والخرافة في اللغة بفتح الخاء " حديث الخرف المضحك وبضمها رجل من غدرة استهرته الجن " فكان يحكي ما رأى فكذبوه وقالوا حديث خرافة أو حديث مستملح كَذِبْ، و" الخرافة اعتقاد أو نظام من المعتقدات يستند إلى روابط متخيلة بين الأحداث وغير قابل للتبرير على أسس عقلية، تشير إلى مجال محفوظ في مجالات الاعتقاد بتأثيرات وقوى وعوامل يتم قبولها وتصديق وجودها بلا نقد "[١].

و" لوعدنا شيئاً إلى الوراء لوجدنا أن المجتمع العربي كان مجتمعاً قبلياً يعيش فيه الإنسان ساعياً إلى المجتمع لمواجهة القوى الغريبة التي تتحكم في البيئة

---

(١) موسوعة الأساطير والقصص، إعداد سعيد غريب، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، عمان ط١/ ٢٠٠٠/ ص ١٦

والحياة، ولوجدنا أيضاً أن هذا المجتمع نشأ في بيئة صحراوية قاسية، وبدأ كغيره من المجتمعات بالتعبيرعن نفسه بواسطة الأسطورة لذلك اصطنع الإنسان العربي البدائي لنفسه عادات وطقوساً خاصة ليلائم بها بينه وبين قوى الطبيعة "[١].

و" لقد أسهمت البيئة الصحراوية في بناء خصوصية فكر المجتمع العربي في ماضيه السحيق فصبغته ببعض سماتها، وما المبالغة - التي أصبحت جزءاً فنياً وحيوياً من أساليب الأدب الجاهلي - إلا نتاج تربوي للصحراء التي رسّخت أثرها في تنشئة نفسية الأديب وشخصيته، وآلية تفكيره وطبعها بطباعها، فقد وجد هذا الإنسان نفسه في صحراء هائلة بلا حدود، يسومها المجهول والإبهام إنها بذاتها من أشد صور المبالغة والتهويل بالنسبة لتفكير الجاهلي، فانطبع بشكل عفوي بهذه السمة التي جعلته يستعيدها في خياله الفني على صورتي المبالغة والتهويل، وهما سمتان رئيستان في الفكر الجاهلي وطباع ناسه"[٢].

ولم يكن تصوّر الإنسان العربي للغول مثلاً إلا استلهاماً لهول الطبيعة التي يعيش فيها، فلفظ الغول على سبيل المثال يحمل في جذره اللغوي عند العرب مساحة هذا المعنى من الخوف والمجهول والهلاك. فالغُول بالضم "الثُعال" والجمع أغوال وغيلان، وكل ما اغتال الإنسان فأهلكه[٣]، وتقول العرب:" إن ضُربت الغول بالسيف ضربة واحدة هلكت فإن ضُربت ثانية عاشت "[٤].

والغول كائن ذهني يتصوره الذهن ولا وجود له في خارجه. وبعد دخول الإسلام وتفكك المجتمع القبلي بقيت هناك على المستوى الشعبي أفكار

---

(١) التصوير الشعبي العربي، تأليف د. أكرم قانصو، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب والفنون، الكويت.

(٢) دراسة غير منشورة بعنوان الأنماط الأسطورية الأولية في القصة النسوية العربية، بقلم د . خالد زغريت.

(٣) لسان العرب، مادة غول.

(٤) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ج ٢، ص ٣٤١.

يغلب عليها السحر والشعوذة والخرافة كانت معظمها منتشرة في الريف والمدينة على حدٍ سواء.

وتحفل الذاكرة الشعبية في حمص بالكثير من الموروث الشفاهي المرتبط بالخرافة بأشكالها المتعددة ومنها ما يتعلق بالرقى لإبطال الحسد ودرء إصابة العين لأن (العين حق) كما يقولون وقلما يخلو بيت في المدينة والريف السوري على حد سواء من نماذج لهذه الرقى والتعاويذ، تبرز في الثقافة الشعبية للناس، وفي سلوكهم اليومي أو في متعلقاتهم الشخصية، ويعود الاعتقاد بتأثير التعاويذ والرقى على حياة الناس إلى عصور سحيقة من التاريخ فقد " وُجد في مكتبة معبد الإله حورس في ادفو – جنوب مصر – كتاب مملوء بالرقى والتعاويذ لطرد العين الشريرة وثمة أنشودة معروفة للإله تحوت ورد فيها " أيها الإله تحوت إذا كنت تحميني لم تبق بي حاجة إلى الخوف من العين "(١).



وفي السجلات التاريخية المصرية والكلدانية واليونانية والفارسية إشارات تفيد بأن هذه الشعوب عرفت العين الشريرة وحاربت أذاها بشتى

(١) السحر في مصر القديمة، تأليف واليس بدج، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، الناشر مؤسسة الانتشار العربي وسينا للنشر بيروت ط١ / ٢٠٠١ ص ٥٤.

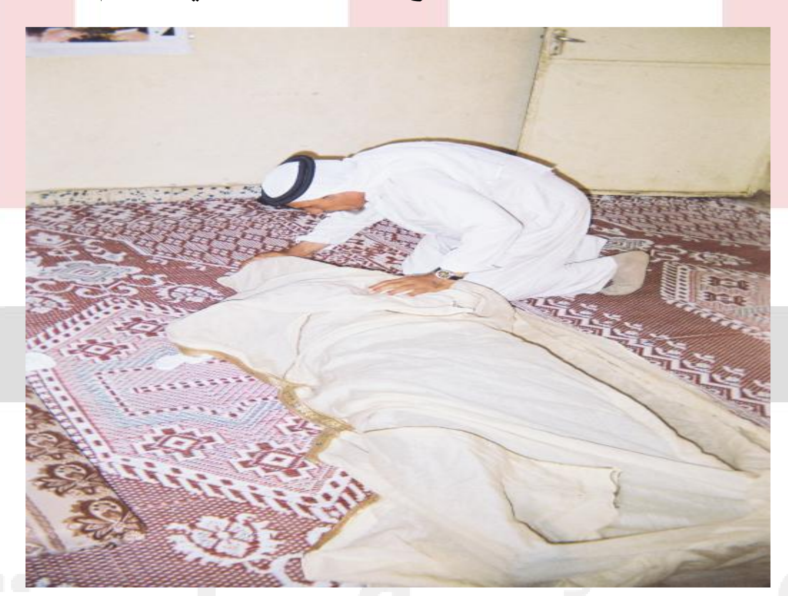
الوسائل والطرق، وعرف العرب الحسد وإصابة العين منذ عصر الجاهلية وحتى اليوم لهذا تفننوا في ابتداع الوسائل الواقية من الشرور والأذى، وانطلاقاً من هذا الفكر الخرافي أعد الإنسان الشعبي سلاحاً لمحاربة القوى المعادية له كالأرواح الشريرة والحسد وإصابة العين كما عقد آمالاً وهمية لإطالة العمر وجلب المحبة والخير فأسفر ذلك عن جملة أعمال سحرية وخرافية تحقق الغرض المطلوب. ففي مصر مثلاً وبعض دول الشرق العربي كانت قرون الأغنام تعلق على الأبواب اتقاء للشر والكف وجريد النخل ذات السبع وريقات ضد إصابة العين ولجلب الخير وطول العمر.

وفي حمص كما في غيرها من المدن السورية انتشرت ظاهرة تعليق حدوات الخيول على سواكف البيوت كتعويذة لجلب الحظ واتُخذت حدوة الحصان كرمز إلى الحظ منذ القديم فالحافر رمز للحصان والحصان عند العرب القدماء وعند غيرهم من الشعوب دلالة على جلب الخير ومما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة).

و"يعود اختراع حدوة الحصان إلى الإغريق وذلك في القرن الرابع الميلادي حيث اعتبروها أنموذجاً للحظ الجيد، إلا أن الأساطير تعزو تلك العادة إلى القديس دونستان الذي أعطى للحدوة المعلقة فوق باب المنزل قوة خاصة لردع الشيطان، وكان هذا القديس - الذي أصبح أسقفاً لكانتربري عام ٩٥٩م - حداداً وفي أحد الأيام، أتى إليه رجل وطلب منه أن يحدي له قدميه مما أثار الشك لدى دونستان بأن السائل هو الشيطان خاصة وأن له أظلافاً مشقوقة (الظلف المشقوق رمز للشيطان) لذلك، أوضح له أن عليه أن يعلقه مقيَّداً إلى الحائط ليستطيع إنجاز العمل وعلى نحو متعمد، أنجز دونستان عمله، مكيلاً العذاب والآلام للشيطان الأمر الذي جرّ الأخير إلى توسل

الرحمة، لكن دونستان رفض تحريره قبل أن يعطيه قسماً صادقاً بأنه لن يدخل أبداً أي منزل وضعت حدوة حصان على بابه"[١].

ومنذ ظهور هذه القصة في القرن العاشر، ظل المسيحيون يستخدمون حدوة الحصان ويضعونها فوق عتبة المنزل ثم وضعوها في منتصف الباب لتخدم وظيفة أخرى تتمثل في دق الباب إضافة إلى منعها للشيطان من دخول المنزل حسب اعتقادهم. ومن هنا ظهرت دقاقة الباب على شكل حدوة فرس كما لم ينس المسيحيون قديماً القديس دونستان فاحتفلوا بعيده في التاسع عشر من مايو/أيار من دون أن يغفلوا إدراج حدوة الحصان في ألعابهم.



القوى السحرية

من جهتهم، عزا الإغريق القوى السحرية في الحدوة إلى عوامل أخرى فهم يعتقدون أن الحدوة صُنعت من الحديد لأنه يحوي قدرة لردع الشيطان. ويقولون

---

(١) قصة العادات والتقاليد وأصل الأشياء، تأليف تشارلز باناتي، ترجمة مروان مسلوب، إصدار الدار الوطنية الجديدة، دار الخيال، بيروت ط١ / ٢٠٠٣.

إن الحدوة أخذت شكل هلال القمر لأن الإغريق اعتبروا الهلال رمزاً للخصب والحظ السعيد. وجاء الرومان بعد ذلك آخذين حدوة الحصان عن الإغريق معتبرين أنها ذات وظيفة مزدوجة فهي تُستخدم عندهم لحدي الخيول وردع الشيطان والأرواح الشريرة. وانتقل اعتقاد الرومان الوثنيين بخاصية الحدوة السحرية إلى المسيحيين الذين أقاموا حولها قصة القديس دونستان.



و" في القرون الوسطى عندما بلغ الخوف من السحر ذروته، أولى الناس الحدوة المزيد من الاهتمام، فاعتقد أناس تلك الحقبة بأن الساحرات يسافرن على المكانس لأنهن يخشين الأحصنة وأي شيء يذكر بها، الأمر الذي جعل للحدوة قوة خطر على إبطال السحر. ومن هنا زاد اعتقاد الناس حول الحدوة فوضعوا على تابوت المرأة المتهمة بامتهان السحر، حدوة الحصان لتمنعها من الانبعاث من جديد، واعتقد صانعو الحدوات في روسيا أنهم قادرون على ممارسة السحر الأبيض لمواجهة السحرة ولرعاية قسم الزواج وعقود العمل إذ لم يكن ذلك القسم يؤدى طبقاً لقواعد الإنجيل، بل يؤدى على سندان الحداد الذي عليه تصنع الحدوات، ولم يعلق الناس الحدوات

هكذا بطريقة عشوائية، بل وفقاً لقاعدة ثابتة، تتمثل في جعل طرفيها الحدين للأعلى حفاظاً على قدرتها لجلب الحظ وربما كان ذلك مستوحى من الهلال القمري نفسه عندما يشرق من جهة الغرب في أول الشهر حيث يبدو طرفاه للأعلى، وكثير من الناس يتفاءلون خيراً عند رؤية الهلال بهذا الشكل ولدى بزوغه من الغرب رقيقاً. وقد بقيت حدوة الحصان رمزاً للحظ الجيد في الجزر البريطانية حتى حلول القرن التاسع عشر. وتقول إحدى الأغنيات الايرلندية الشائعة: "باسم الله يتسمر الشيطان وتتقيد حركته"،[١].

طلاسم وأحجية

جاء في المنجد للغة والإعلام: التعويذة مفرد تعاويذ و(المعاذة) مفرد معاذات – أسماء بمعنى الرقية وهي التي تُكتب وتعلق على الإنسان لتقيه في اعتقادهم من الجنون والعين و(المعوذ) موضع القلادة[٢].

أما الرقية فهي ما يُستعان به للحصول على أمر بقوى تفوق القوى الطبيعية في زعمهم أو وهمهم، والراقي من يصنع الرقية، و" التمائم " مفردها تميمة وهي أي شيء يحمله أو يضعه الإنسان في مكان ما للوقاية من مكروه أو تحقيق غرض يسعى إليه وقد يكون هذا الشيء من حجر أو معدن أو عظم، وقد وردت الرقية في القرآن الكريم بمعنى الطبيب قال الله تعالى في كتابه العزيز: (كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راقْ)[٣] – أي من يعالج المريض إذ بلغت النفس الحلقوم. أما الحجُب أو الأحجبة فهي نوع من التمائم تُستعمل لأغراض اعتقادية، وجاء في المنجد أيضاً (الحجاب) حرز يُكتب فيه

---

(١) مصدر سابق.

(٢) المنجد في اللغة والأعلام - الأب لويس شيخو، ط١ بيروت ١٩٦٠.

(٣) الآية ٢٧، سورة (القيامة).

شيء ويُلبس وقاية لصاحبه في زعمهم من تأثير السلاح أو العين أو غير ذلك "وتُكتب الحُجب بالحبر الأحمر أو الأخضرأو بالزعفران ثم تُغلف الكتابة بالجلد وتُوضع مع الثياب ويقوم المعوذ بتدوين طلاسم وأحجية غير مفهومة بحبر الكوبيا على الغلاف فإذا جاء إليه من يشكو من مرض أو علة، يضع أوراق هذا الطلسم المكتوب في وعاء فيه ماء فيقوم الشاكي بشربه " ليحصل له الشفاء" - كما يدّعون -.



ومن النماذج المصورة ذات الدلالة النفسية فيما يتعلق بالرقى والتعاويذ لوحة شعبية ما زالت تعلق في الحافلات وعربات النقل وهي تمثل كفاً مفتوحة في وسطها عين كتب تحتها (يا حافظ) والى اليمين دائرة سوداء داخلها عبارة (سبحان الله) وفي الأسفل شريط أصفر كُتب فيه (الملك القدوس رب الملائكة والروح، خالق السموات والأرض ذو العزة والجبروت) وإلى اليساردائرة أخرى فيها (اللهم صل على محمد) وفي الأسفل شريط أصفر فيه (واجعل من أمري فرجاً ومخرجاً وارزقني من حيث احتسب ومن حيث لا أحتسب) وفي الأعلى دُونت جملة (الحسود لا يسود) و(بالشكر تدوم النعم) و(لله در الحسد

ما أعدله، بدأ بصاحبه فقتله) وجملة (من راقب الناس مات هماً) وفي إطار اللوحة كتبت سورتان من القرآن الكريم وهما سورة الفلق وسورة الناس.

حق العين

يعتقد العامة أن المرض هو لعنة من الإله وأسبابه متعددة فقد يُصاب الإنسان بالعين وذلك لما للعين من مفعول سحري وللخلاص من آثار الإصابة بالعين يلجأون إلى طرق بدائية كالرقية وهي تعويذة تستنجد بقوى ما وراء الطبيعة - كما ذكرنا آنفاً - لأن العين تأخذ حقها من الحجر كما يقولون والعين التي تترك أثراً سلبياً هي الزرقاء ولاتقائها يضعون الخرزة الزرقاء أو الأحجار وبعض الحجب لقدرتها على "رد الشر" - كما يزعمون - ومن هنا فالحجارة في الخواتم تجلب الخير والبركة والرزق لحاملها وبعضها يشفي من الأمراض لذلك كانت الأمهات تُخطن الأحجار الكريمة والخرز على صدور أطفالهن أو على أغطية رؤوسهم ويقال أن للخرزة الزرقاء علاقة بالصراع بين الساميّين والحاميّين في الزمن القديم.

وظاهرة تقديس الخرز والأحجار في المعتقد الشعبي تشير إلى أن الحضارة في بلادنا لم تستطع إلى حد ما تفسير المرض والكوارث الطبيعية وغيرها تفسيراً صحيحاً، لكن مثل هذه الثقافة الشعبية على الرغم من رجعيتها، فإن الإنسان لم يتوصل إليها، إلا بعد إيجاده نظريات لنشوء الكون والخلق، وهذه كانت القاعدة العريضة التي استندت عليها الإنسانية في تطوير نظرتها والفكر الإنساني في مرحلةٍ ما هو الذي قدّس بعض الحيوانات والجمادات، لا لأنها مقدسة بذاتها بل لأن فكره هو الذي قدَّسها، وفي معتقدنا الشعبي هناك بعض الخرزات المقدسة التي يُعتبر وجودها في البيت ثروة مثل خرزة (الحصر) عندما يصاب الطفل بمرض يسد المجاري البولية لديه

وخرزة (الحليب أو الذرة لدر الحليب) وخرزة (المحبة) لربط الزوج ببيته وزوجته وهي عبارة عن حرز لجلب الود والمحبة بينهما.

صيبة العين..

يعود إيمان البشر بصيبة العين إلى العصور القديمة إذْ عرف المصريون القدامى العين وخافوا منها فاتقوا شرها، كما اتخذت شعوب الحضارات التاريخية العريقة مثل الكلدانية والفارسية والفينيقية واليونانية عدداً من الاحتياطات لاتقاء شر العيون منها التعاويذ والأحجبة والخرز الأزرق.. وغيرها.

ويُقال أن سارة زوجة النبي إبراهيم عليه السلام، حسدت ذات مرة إسماعيل عليه السلام، حين وقع بصرها عليه وهو يسرح ويلعب " البرجاس "والبرجاس أو البرجيس هو لعبة كالنرد"[1] وكان أعظم صيادي البرية فسلطت عليه عين حسود، سقط علي إثرها مشرفاً على الموت حتي إن هاجر دفنته تحت رمل الصحراء، وصلَّت هاجر لأصنامها وإسماعيل لربه، إلى أن حدثت المعجزة التي قام على أثرها واسترد عافيته.

وقد انصبَّ حقد سارة من خلال عينها الحاسدة على إسماعيل للانتقام بذلك من ضرتها هاجرأم إسماعيل فأصبح النبي إبراهيم عليه السلام بعد ذلك يعوِّذ ابنيه إسماعيل وإسحاق من شر العين الحاسدة، وكذلك أيضاً يعقوب عليه السلام من بعده إذ كان يخاف على بنيه من العين الحاسدة، ويوصيهم بأن يحتاطوا لأنفسهم قبل ذهابهم إلى مصر للقاء أخيهم يوسف عليه السلام كما قصّ علينا القرآن الكريم.

---

(١) الموسوعة العامية السورية، ياسين عبد الرحيم، دمشق وزارة الثقافة، في أربعة مجلدات ٢٠٠٣ / ج ١ ص ١٨٧.



وقد " اتفقت أمم الأرض قاطبة منذ بدء الخليقة إلي يومنا هذا أن للعين تأثيراً كما هو معروف ومتداول بين الناس، ولو أصغينا إلى أحاديث الناس لسمعنا منهم القصص الغريبة والعجيبة عن تأثير العين. وسواء أكان أولئك الناس مثقفين أم من العامة فلا يخلو جيل أو عصر من الأحاديث أو الوقائع المختلفة والمتعددة عن العين الحاسدة البغيضة التي يقع تأثيرها وشرها على كل ذي نعمة محسود أو ما شابه ذلك[1].

ولكن آراء الناس في حقيقة تأثير العين ليست واحدة، فمنهم من يعتبر الأمر خرافة، ويجاهر البعض بعدم الإيمان بها معتبرين أنها من المعتقدات الشعبية الخرافية القديمة التي لا يجوز تصديقها في عصر العلم والنور والمعرفة.. وتتمثل هذه الفئة بالمتعلمين والمثقفين وغالبيتهم من الجيل الجديد المواكب لأحدث مبتكرات العلم. والفئة الثانية تجاهر بعدم إيمانها بصيبة العين ولكن يتملَّكها رعب حقيقي وخوف شديد من شر العين، ولا تستطيع المجاهرة

---

(١) العين وتأثيرها على ضوء العلم والدين تأليف عبد الرزاق كيلو، دار المحبة، دمشق ط ١ / ١٩٩٨ ، ص ١٧.

بخوفها من أذية العين نظراً لانتمائها إلى طبقة اجتماعية تتمتع بمستوى ثقافي رفيع. أما الفئة الثالثة فهي تؤمن بصيبة العين وتمثل قطاعاً كبيراً من المجتمع بطبقاته الاجتماعية وعلى اختلاف مستوياته الثقافية.

العين أداة الحسد

يحتل الاعتقاد بالعين الحاسدة في التراث الشعبي العربي أهمية خاصة لانتشاره الواسع، ويمكن الاستدلال على ذلك بكثرة الروايات عن العين الحاسدة وتنوع وكثرة أساليب أو طقوس الوقاية منها أو إبطال مفعولها، وكثرة تفسير المرض أو الموت بها.. و" في المأثور الشعبي ما يشير إلى الخوف من الحسد والعين الحاسدة وأثرهما في قتل الكثير من الناس فهم يقولون " ثلثين الجبانة من العين وبنات الدينين " ويقوم الاعتقاد بالعين الحاسدة على تصورمفاده أن ما يحدث للإنسان ولممتلكاته من سوء يعود في أحيان كثيرة إلي تأثير العين الحاسدة والتي غالباً ما تكون عيناً شريرة"[(١)].

وقد نشأ الاعتقاد لدى الناس على أن العين هي أساساً أداة الحسد وأن ليس من الضروري أن يعبّر الحاسد عن حسده بالكلمات أو الإشارات وإنما يكفي أن ينظر بعينه فيصيب بها الشيء المحسود بالسوء والضرر، ولذلك أصبحت كلمة أصابته عين أو الدعاء الحريمي " عين تصيبك " مرادفاً للحسد وما يرافقه من حلول الشر.. وكان من تأثيرهذا الأمر أن أصبح الناس ميالين إلى إخفاء ما يخافون عليه الحسد أو يفسدون جماله أو يجعلون فيه عيباً، وذلك كي لا يجلب أنظارالناس ولا يتمناه الحساد. ويعتقد أهل حمص أن الحسد يكون على أتمه إذا نظرالحاسد وشفع نظرته بالشهيق وكان من الشائع عند النساء أنه إذا نظر رجل تلك النظرة أسرعت المرأة وقالت " وراك حية أو عقرب أو نار " فيلتفت الرجل وراءه لينظر إليه وعند ذلك يذهب سحرعينيه

---

(١) المعتقدات الشعبية في التراث العربي، تأليف حسن الباش ومحمد توفيق السهلي دار الجليل، دمشق ط١، بلا تاريخ نشر ص ١٧٣.

ويداوون الإنسان المحسود بطرق شتى ومنها بأن يأخذوا قطعة من طرف ثوب الحاسد ويبخرون بها المحسود سواء كان إنساناً أو حيواناً أو أي شيء آخر ويزعمون أن الحجاب يمنع حسد العين ولهم في ذلك طرق عديدة ومنها وضع قليل من الملح في كيس صغير يُعلق في عنق الأطفال أو ناب ذئب أو ناب ضبع توضع في قطعة قماش وتُخاط على صدر الطفل، وبعض العجائز كن يوقدن ناراً ويرمين فيها قطعة من" الشبّة " ويذكرن أسماء الذين يُظن أنهم الحسدة ثم يقمن بأخذ دبوس أو إبرة ويضعنه في عين الصورة التي تحولت إليها " الشبّة " ويقلن " فقأ الله عينها " وقد يأخذن قطعة من الورق ويشككن فيها الدبوس مرات متعددة وفي كل مرة يقلن " من عين فلانة " و" من عين فلانة " ثم يبخرن المحسود بهذه الورقة مع الملح.

ومن مظاهر الخرافة المتشعبة من خرافة الإصابة بالعين في حمص عدم إظهار الحقائق عن صحة الإنسان ونجاحه وأرباحه ومن الشائع عدم إتمام بناء ما فإذا بُني بيت مثلاً فمن الضروري ترك فجوة أو حجرة ناقصة وإتمام هذا البناء دون تركهما يعني أن الأرواح الشريرة ستبدأ بإنزال البلايا على البيت ويبدو أن هذه الفكرة ليست بنت عصرها فحسب بل آمن بها الأقدمون ومن هنا جاءت فكرة إنهاء القصيدة بعدد فردي لا زوجي لأن العدد الزوجي يدل على التمام والكمال وقد قال الأقدمون: " توقع زوالاً إذا قيل تم " وقال الشاعر العربي:

لكل شيء إذا ما تم نقصان   فلا يغرن بطيب العيش إنسان

عين الحسود فيها عود

انتشرت في الأوساط الشعبية رسومات متعددة للعين المفردة أو للعينين معاً مطبوعة باللون الأزرق على ورقة تلصق على زجاج السيارات، وقد تكتب على الورقة عبارات " الحسود لا يسود " أو"عين الحسود فيها عود " أو

"عين الحاسد تبلي بالعمي" أو "لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله". وهم يستخدمون أيضاً قلائد الخرز الزرقاء المتوسطة الحجم، ويعلقونها على صدور الأطفال وأعناقهم لحمايتهم من العين، وقد يعلقون بيضة أو قطعة من الشبَّة على باب البيت وقد تُستعمل مجموعات من الخرز مرتبة إلى جانب بعضها بشكل هندسي كالمستقيم أو المثلث.

نقصة القمر

وهذه الظاهرة معروفة في سوريا كما في غيرها من بلدان شرق آسيا، ومثل غيرهم يتوقع أهل حمص الحسد والأذى من جميع الناس دون استثناء، لكن الأقدر على صيبة العين - حسب اعتقادهم- هي المرأة ذات الشعر الكثيف على جسدها والرجل الأجرودي الذي يخلو وجهه من الشعر وفي هذا يقول المثل الشعبي : « تصبّح بالقرودي ولا تتصبّح بالأجرودي » و - الأجرودي هو الرجل الأجرد الذي لا شعر على جسده -

وربما كان توقع الحسد من هذين بسبب مظهرهما المخالف للطبيعة، كما ينفرون من صاحبي العيون الزرقاء والأسنان المتباعدة، ويرددون في هذا المجال المثل الشعبي "عيون زرق وسنان فرق " و" قد يكون سبب النفورمن العيون الزرق التأثر بالعرب المعروفين بنفورهم منها وبندرة الزرقة في عيونهم وغلبة السواد عليها[١].

ويُقال إن العجائز، خصوصاً النساء منهن، والمرأة أو الرجل العاقرين هما الأقدرعلى الإصابة بالعين، وكذلك فإن الأقرباء الذين يُكثرون من رؤية جميل الوجه، ويرددون عبارات منها "شو هالطلة الحلوة " و" شو حلو هالوجه

---

(١) دراسة " صيبة العين " للباحث نجم الدين بدر ، مجلة الرواد اليونان، العدد ٣٠ تشرين الأول ١٩٩٣ ص ٧٣.

" و" يا عيني على هالجمال " يصيبون بالعين، ولذلك يهاب أهل حمص عين المحب ويبرز هذا الأمر من خلال الرقية التي توضع اتقاء من صيبة العين.



وفي الأمثال الشعبية يقولون: " حفظتك يا فلان أو فلانة بالله من عيون خلق الله.. من عين أمك.. من عين أبوك من عين اللي يحبوك." كما أن الرجال أصحاب الوجوه القبيحة والحواجب الغليظة والعيون الغائرة والأقزام المشلولين والمولودين في نقصة القمرهم الأقدر على الإصابة بالعين.

وفي المقابل فإن العين تصيب جميع الناس وكل الحيوانات والأشياء، وربما ينظر العائن إلي طير فيقع وهناك قصص أقرب إلى الخيال تُروى في حمص حول هذه الظاهرة، لكن أكثر البشر تعرضاً للإصابة هن البنات في سن الزواج والعروس في موكب عرسها والعريس أثناء عرسه وصاحب الوجه الجميل أو القامة الفاتنة والذكاء الحاد.

ظاهرة كهربائية

تشكل الإصابة بالعين مفاجأة للإنسان غالباً فقد يصاب بها وهو في بيته أو مصنعه أو في الشارع.. وإذا كان لبعض الأمراض أدوية تخفف من وطأتها فإن للوقاية من العين عند أهل حمص أساليب متعددة، منها شراء "ميعة" وهو صمغ طيب الرائحة يُستخرج من الأشجار، والأكثر شيوعاً بين الناس تعليق حدوة حصان أو خرزة زرقاء أو كف مفتوحة أو لوحات فنية تتضمن آيات قرآنية على جدران البيوت أو فوق عتباتها، بالإضافة إلى التسمية عند إبداء الإعجاب بشيء جميل، وتكون بترداد إحدى العبارات التالية "اسم الله، بسم الله، بارك الله، ما شاء الله، الله يبارك، يخزي العين، صلاتك يا نبي." وغيرها. كما أن ثمة عبارات تقال سراً منها عينك بإجرك أو بعينك قشة.. أما مسألة الدق علي الخشب فيعود إلى الاعتقاد بأن صيبة العين ظاهرة كهربائية مغناطيسية والخشب من العوازل التي لا تسري فيه الكهرباء أو المغناطيس.

الفصل الرابع

أساليب تخويف الأطفال في التراث الشعبي

ورث الخيال الشعبي الكثير من المعتقدات والأساليب الخاطئة في إخافة الأولاد للحد من شغبهم وضجيجهم في المنزل وخارجه، ورغم ما لهذه الأساليب من دور سلبي في تكوين شخصية الطفل كما يقول علماء النفس فإنها تظل جزءاً من الموروث الفولكلوري ومن الثقافة الشعبية السائدة التي ننتمي إليها وأنموذجاً لدراسة علم نفس المجتمعات وطرائق تفكيرها، وتأخذ هذه المعتقدات والأساليب في مدينة حمص مثل غيرها من المدن السورية أشكالاً متنوعة تختلف باختلاف مستويات التفكير الذهني لدى الناس.

ومن هذه الأشكال تخويف الأطفال بالغول فإذا لم يخلد الطفل للنوم وأصبح مثارإزعاج لوالدته وبخاصة في الليل تقول له " إجاك الغول " أو " إجتك الغولة " ويصورون الغول أوالغولة بأنه شيء ضخم وله أظافر طويلة وعينان بارزتان وأسنان طويلة وشعرطويل يأخذ الأطفال الأشقياء وينهش لحمهم بأظافره ويأكلهم، ويقصون على الأطفال أن " الغويلة " سمعت ابن فلان يبكي في الليل فمدت يدها الطويلة المكسوة بالشعرالأسود الطويل من النافذة والتقطت الطفل الباكي وأخذته، وعند الصباح وجده أهله بلا عينين ولا أذنين ولا قدمين.

ويصف الكاتب الراحل "محمد مستجاب" بأسلوبه الأدبي الممتع تأثره بأسطورة الغول في طفولته قائلاً: التقيت الغول مبكراً، كانت أمي تلجأ إليه كي

يؤذيني بالتحديد – كي يأكلني – كلما أحدثت شغباً أو أحدثت لها قلقاً، وكانت ليلة عاصفة ذات سحب ورعود عندما انشق بطن السماء في جلبة مشتعلة حتى كاد وهج نارها يلامس وجهي، بعدها نزل الغول الأسود الضخم، واخترق سقف البيت ليقف فوق رأسي، كان أكبر قليلاً من الغوريلا، وأكثر وهجاً من التنين، وانحنى نحوي حتى أصابتني قشعريرة الموت، ثم أمرني ألا أضايق أمي، صرخت مرة أو مرتين، فنهضت أمي من مخدعها لتتقذني وكلما قلت في ارتجاف: الغول، هشَّته بيدها في صراخ منزعج، فطار إلى الجو مخترقاً سقف البيت ثم رفعتني أمي من الفراش فوق صدرها ممتصة انزعاجي. ورأيت الغول بعد ذلك في أوار الفرن أثناء ضجيج الخبيز، ووراء شجرة الجميز حينما كانت أختي تحملني في الفجر لمستشفى المدينة البعيدة لعلاج عيني الرامدة، وفي جب ساقية قديمة قُتل فيها أحد أقاربنا ذوي البأس، ثم بين غابات حقول الذرة يطارد اللصوص والنجوم والثعالب والقمروالشياطين وأبا رجل مسلوخة والذين يدوسون على نعمة الخبز بأقدامهم(١).



(١) نبش الغراب، تأليف محمد مستجاب، سلسلة كتاب العربي المجلس الوطني للآداب والفنون الكويت ٢٠٠٥ ، ص ٤٧.

غول الحلم

الغول والغيلان في الأصل دابة أو نوع من الشياطين ومردة الجن كانت العرب تزعم أنها تظهر للناس في الفلاة والخلاء فتلون لهم صوراً شتى وتغوَّلهم وتُهلكهم و"الغول في الأصل هو كل شيء يذهب بالعقل، حتى الكحول في الأصل مشتقة من الغول"[١]، وفي الأمثال قالوا الغضب غول الحلم وقد أبطل الإسلام هذه الترهات والاعتقادات الموهمة عندما قال الرسول **r** " لا عدوى ولا هامة ولا صفر ولا غول ".

ويرد الغول في عِداد المستحيلات قال الشاعر:

أقسمت أن المستحيل ثلاثة   الغول والعنقاء والخل الوفي

و"الغول كل ما اغتال الإنسان فأهلكه فهو غول، والعرب تسمي كل داهية غولاً على التهويل والتعظيم على ما جرت به عاداتهم فيما لا أصل له ولا حقيقة كالعنقاء"[٢].

وقال بعضهم الغول نوع من الجن كان يغتال الناس بغتة بحيث لا يُعرف له مكان حتى يُطلب، ثم استُعمل غول الغول في انتفاء أمر بحيث لا يُرى منه أثر ومن الأمثال الشعبية السائدة في حمص قولهم (اللي بيخاف من الغول بيطلع له) كناية عن تأثير الهواجس والتداعيات على الإنسان.

ويورد القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) عن الجاحظ قوله: الغول كل شيء من الجن يتعرض للفساد ويكون في

---

(١) دراسة بعنوان الغول: محاولة لاستقصاء الاعتقادات الشعبية العربية حوله – عيسى الجراجرة – مجلة التراث الشعبي - العدد الخامس – السنة الحادية عشرة - ١٩٨٠ دار الجاحظ للنشر بغداد.

(٢) مصدر سابق.

ضروب الصور والثياب، وذكر جماعة من الصحابة أنهم رأوا الغول في أسفارهم ومنهم عمر بن الخطاب **t** الذي رأى الغول في سفره إلى الشام قبل الإسلام فضربه بالسيف[١].

وقد تفنن المصورون الشعبيون في تصوير الغول على شكل كائن مخيف بشكل تركيبي نصفه من بشر ونصفه الآخر من حيوان مفترس له قرنان يعلوه رأس وحشي، ويطلق عامة الناس على الغول اسم " البعبع " وهذه اللفظة كفيلة بأن تدب الرعب والهلع في قلوب الصغار فيركنون إلى النوم أو الانزواء في أحضان أمهاتهم.

بيت الجن وطير الليل

وثمة أساليب ومعتقدات سلبية أخرى في تخويف الأطفال ومنها " أبو همامو " الذي يأكل الأطفال باعتقادهم كما كانت بعض الأمهات في الماضي يلجأن إلى تخويف الطفل بالخيال أو بالطيور الضخمة فإذا كان في الدار أشجار برتقال مثلاً يُقال للطفل إن على الشجرة شوحة تأكل الطيور والأطفال فيصبح الطفل نهباً لهذه المخاوف، وكانت العتمة عاملاً في تخويف الأطفال وكذلك البيوت المهجورة التي كان يُطلق عليها " بيت الجان " أو " الحيوانات " وربما " بيت الحطب " يُضاف إلى ذلك النواحي السمعية المتمثلة في الأصوات البعيدة كصوت الريح أو اهتزاز الشجر أو أصوات الحيوانات المخيفة وبخاصة نباح الكلاب، وكانت بعض الأمهات يخفن أولادهن الصغار بـــ " طوير الليل - طائر الليل – وهو الخفاش وبتشكيل خيالات أمام الفانوس القديم وبخيال الإنسان لذلك قيل في الأمثال الشعبية (هادا بيخاف من ظلو) وبعض الأمهات في الماضي كن يلجأن إلى تخويف أولادهن بالقبور ويُوحِين

---

(١) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تأليف زكريا القزويني، بيروت ١٩٧٨.

إليهم أن أرواح الموتى وأشخاصهم تخرج من القبور لتعاقب الصغار المذنبين أو الأشقياء أو الذين يعذبون أمهاتهم.

وبمقابل أساليب تخويف الأطفال في الذهنية الشعبية هناك أساليب لتشجيع الطفل وإسكاته إذا بكى ومنها وعده بـــ "النحُّو" وهي كلمة تعني في التعبير الشعبي مجموعة الألعاب والحلوى والملابس والأطعمة أو وعده بالنزهات إلى السيران أو السماح له بزيارة الجيران، وإذا بكى الطفل عند بيت الجيران يلجأ الجيران إلى عبارة "بدُّو حمّص القعود" وهي عبارة تعني تقديم أنواع الحلوى من زبيب وجوز ومكسرات لإسكاته وإشغاله بالإضافة إلى إعطائه النقود المعدنية ليضعها في المطمورة الفخارية التي كان الأطفال يُودعونَ فيها جزءاً من "خرجياتهم" وهي ناحية تربوية تعوّد الطفل على الاقتصاد والاعتماد على النفس ومعرفة قيمة المال.



الفصل الخامس

اعتقادات الحجر في التراث الشعبي الحمصي

من أكثر العناصر الاعتقادية الشعبية انتشاراً في الماضي والحاضر وفي العالم القديم والجديد وعند الشعوب البدائية والمتقدمة على حدٍ سواء ما يتعلق بالحجر الذي عرفه الإنسان منذ بدء الخليقة فاستعمله لإيقاد النار والدفاع عن النفس ضد الوحوش الضارية وفي سد حاجاته اليومية لذلك سُمي العصر الذي سبق إنسان الكهوف بالعصر الحجري، أي منذ ما قبل ظهور المعادن عند الإنسان البدائي الذي استخرج الحجارة من المقالع ليبتكر أدواته وأسلحته الحجرية ويبني بها مأواه أو يغلق بها فجوات كهوفه ومغاوره، وهكذا ظل الحال حتى بدأ عصر الفولاذ والإسمنت يحلان مكان الحجر، وقد لعب الحجر دوراً كبيراً في تاريخ المعتقدات والديانات فلليهود أحجارهم المقدسة وللمسيحيين والمسلمين أيضاً، هذا غير الكثير من الأحجار المتناثرة في مقامات الأولياء والأضرحة التي يتبارك بها البسطاء، ومن المعروف أنه يوجد الآن تسعة أحجار يدّعون أنها لأثر النبي **r** على الصخر خمسة منها في مصر وواحد بجوار صخرة المعراج بقبة الصخرة وثلاثة بالمتحف الإسلامي في اسطنبول.

وللحجر جذور أسطورية قديمة في الفكر الإنساني لا زال الكثير من مظاهرها سائدة في الذهنية الشعبية لمجتمعاتنا العربية، وقبل التعرف على بعض هذه المظاهر السائدة في حمص نقرأ ما كتبه أبو منصور الثعالبي في هوية الأحجار وأسمائها وألوانها، " ففي الأرض تسمى (اليُرمع) بالراء حجارة

بيضاء تلمع في الشمس و(اليلمع) باللام حجارة سود تلتصق بالأرض، والمهاة حجر البلور، والمرمر حجر الرخام والمرجاس حجر حاد يفتح عيون الماء في البئر والحجارة والحصى والجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، ولكنها حية تتأثر وتنفعل وتسبح لرب العالمين وتأتي بالثمار والنفع العظيم لمن في الأرض ومن عليها وما فيها. قال الله تعالى في كتابه العزيز: (وإذا استقى موسى فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله "[١] وقال عز وجل «وإن من الحجارة لما يتفجر[٢] منه الأنهار وإن منها يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط[٣] خشية الله»[٤].

وقد اعتاد العرب القدماء على عبادة الحجارة النيزكية وارتبطت عبادتها بإله الشمس فهو إله السماء ومرسل هذه الحجارة التي قُدست وعُبدت باعتقادهم.

وقد انتشرت عبادة هذه الحجارة في أماكن كثيرة من آسيا الصغرى وشرق أوربا وشمال أفريقيا. وفي مدينة حمص كانت أسرة شمسغرام هي المولجة بعبادة الحجر الذي دعاه الحمصيون (إيلاغابال) - وفق اللفظ الأوربي- وقد نُقل هذا الحجر إلى روما فيما بعد، وعن وصفه لهذا الحجر يقول المؤرخ فيلون: " إنه حجر هبط من السماء كالصاعقة ليس له شكل ولم يجرؤ أي إنسان على إضفاء صورة ما على سطحه الأملس الذي تشوبه بعض الخطوط ونُقشت صورة الحجر على نقود كل أفراد أسرة الأباطرة الحمصيين فصوِّر أحياناً على شكل بيضة وقد التف حوله ثعبان وهو منتصب

---

(١) الآية ٦٠، سورة البقرة.

(٢) يتفجر: يتفتح.

(٣) يهبط: يتردى وينزل والإنفجار والسكب بمعنى واحد والصخور والأحجار تتراءى بكاء بلا دموع.

(٤) الآية ٧٤، سورة البقرة.

في ساحة المعبد، أما ما كان يشاهده الناس فهو أغطيته الثمينة فقط لأن القماش المزركش بالذهب والمحلى بكل أنواع الجواهر ينسدل عليه ليغطيه تماماً، ويأتي التاج المرصّع الذي تتدلى منه جدائل ذهبية ليُضفي عليه شكلاً أقرب إلى الآدمية تفوح منه أغلى روائح الطيب والبخور "[١].

في مسجد الشيخ برق الذي يقع ما بين حي باب الدريب وحي باب السباع في حمص ينتصب عمود حجري نُسجت حوله أسطورة نادرة لا يعلم أحد ما هي جذورها التاريخية، ولكن شكلها الذي وصل إلينا يعطي للعمود خاصية عجيبة في شفاء تشنج الظهر الذي يدعوه العامة في حمص "برق الظهر" تشبيهاً بلمعان البرق في حدته وسرعته فكانت أفواج من الناس تقصد ما سُمي في العصور الإسلامية المتأخرة مقام الشيخ برق ويسند كل منهم ظهره إلى العمود ويضغط عليه ثم يدعو الله بما تيسر له من الدعاء لشفاء ظهره وكانت تُروى الأعاجيب عن حالات الشفاء لبركة العمود الحجري الذي ظل يقصده الناس لهذا الغرض حتى أوائل هذا القرن.

ومن استخدامات الحجر الأسود في حمص "الرحى" أو "الجاروشة" المستخدَم للمطاحن بأنواعها قبل ظهور الآلات الحديثة وتُستخدَم لطحن القمح وغيره من الحبوب و"الأجران" بمختلف استعمالاتها من أجران الاستحمام التي تكون على شكل كتل مربَّعة أو مستديرة بقمة مسطَّحة تنحت في مركزها الوسط حفرة تتسع لحوالي خمسة ليترات من المياه ليختلط فيها الماء الساخن بالبارد "جرن الكبة" ويُدعَى "جرن دقّ الحنطة" لصنع البرغل وهوعبارة عن حجر منحوت بمختلف الأشكال وله ذراع من الحجرعلى شكل مغزلي الرأس ويتم هرس المواد بواسطتها في حفرة الجرن، ومن تلك الأحجار ما له مكانة

---

(١) حمص درة بلاد الشام –د. منذر الحايك - محمد فيصل شيخاني، دار الذاكرة حمص ط١ ٢٠٠٠.

في تاريخ الحمصيين وهو حجر "القيمي - القيمة" ومن أسمائه "شيلي – الرفعة - شيلة المرجلي والمراجل" وكان يُستخدَم في عادة اجتماعية طريفة ومتوارَثة وتتمثل في التحدي على الرجولة بين شباب الحي أوالقرية في ليلة زفاف أحدهم، فالحجر هو المحكّ وفي زفة العريس عندما تُزف له عروسه يشترط أهلها ألا يحصل على عروسه ما لم يرفع "القيمة" لإثبات رجولته أمامهم وأمام عروسه، ومَنْ لم يكن في قدرته رفعها يقوم بتكليف أحد القادرين لقاء هدية تُدعَى بـــ "خلعة العريس" لكن تلك العادة وغيرها من العادات الجميلة اختفت من قاموس ممارساتنا الاجتماعية بداعي أنها غدت بالية في الوقت الذي يعود فيه العالم العربي إلى الفولكلور بقوة(١).



---

(١) مصدر سابق.

الفصل السادس

زيارة أضرحة ومقامات الأولياء

المزارات والأضرحة الإسلامية ظاهرة معمارية متميزة انتشرت في مدن بلاد الشام كما في كل المدن العربية الإسلامية خلال مختلف مراحل التاريخ الإسلامي. والمقصود بالضريح حسب ما هو معروف ذلك البناء المربع الشكل الذي يُقام لتخليد ذكرى إمام أو أمير أو صحابي، وتعلو البناء عادة قبة خضراء اللون محمولة على حنِّيات ركنية أوغيرها، ويتوسطها ضريح حجري أو خشبي مزخرف يُكتب عليه اسم المتوفى، وتاريخ وفاته مع بعض الآيات القرآنية، وقد يكون الضريح ملحقاً بجامع أو مدرسة. أما المزار فلا يحوي ضريحاً عادة وإنما قد يكون مجرد "حويطة" أو كومة من الحجارة، وليس في قواعد الإسلام ما ينص على تحريم أو كراهية إقامة مثل هذه المشيِّدات، ولكن المسلمين من باب التقوى والزهد في الدنيا جَرَوا على أن لا يقام لإنسان ضريح أو مزار خوفاً من التشَّبه بالوثنية أو الجاهلية، ولذلك لم يصلنا من العصور الإسلامية الأولى أي نموذج من هذه المباني ما عدا بعض الأضرحة مثل ضريح (الست زبيدة) في مصر، وضريح آخر يُعرف باسم (قبة الصليبية) قرب سامراء يعود إلى العصر العباسي، وفي العصر السلجوقي انتشر بناء الأضرحة والمقامات على شكل أبراج أسطوانية، وهي أشبه بالمدافن المشيَّدة على هيئة أبراج بسيطة، وفي العصر المملوكي ساد بناء الأضرحة التي تعلوها قباب تقوم على عنق مضلع، وكان الضريح يشتمل

على غرفة أو غرفتين داخل إحداهما قبر، أما في العصر الأيوبي فكان الضريح يقوم في إحدى المباني التي يشِّيدها صاحب الضريح قبل وفاته.

وتمثل بعض هذه الأضرحة التي انتشرت في العصور المتأخرة بالإضافة إلى قيمتها الرمزية تحفاً فنية رائعة تعكس تطور الفن الإسلامي، وغنى معطياته الجمالية، فيما يغلب على بعضها الآخر طابعُ التقشف والبساطة، ويحاصرها الإهمال والتداعي، ولكنها حملت على الرغم من ذلك كله معلومات وتأريخاً لأحداث أغفلها الزمان.

وتضم مدينة حمص السورية مجموعة كبيرة من هذه الأضرحة والمزارات المنتشرة في المساجد أو المدارس الأثرية أو بعض القرى، وهذا يدل على ما لهذه المدينة من مكانة رمزية وحضور روحي في صدور صحابة رسول الذين اختاروها سكناً لهم ومثوى لأجسادهم الطاهرة لما رأوا من نظافتها وملاحتها، ووفرة خيراتها، وطيب هوائها، وعذوبة مائها، ونجدة وشجاعة أهلها، ويُروى عن الكثير بن مرة الحضرمي أنه أدرك بحمص سبعين بدرياً من أصحاب الرسول r وفي طبقات سعد هناك ذكر لمائة وسبعة من الصحابة نزلوا في حمص وجاء في كتاب (المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية) لأبي قاسم علي بن بلبان عن أبي إدريس الخولاني قوله: دخلت مسجداً بحمص فإذا فيه حلقة نيف وثلاثين رجلاً من أصحاب رسول الله (ص)[١] ونظراً لكثرة من سكنها من أعلام الصحابة أُلفت كتب تاريخية جمعت سير هؤلاء الأفذاذ، بل قام بعض مؤلفيها بتصنيفهم إلى طبقات، ومن هذه الكتب كتاب (تاريخ الحمصيين) لأبو بكر البغدادي الحمصي و(طبقات أهل حمص) لأبي الحسن البغدادي الحمصي و(تاريخ من

---

(١) المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية، أبي القاسم بن بلبان، تحقيق محي الدين مستو ود. محمد العيد الخطراوي، دار ابن كثير، دمشق –بيروت ط ٢/ ١٩٨٨.

نزل حمص من الصحابة) لأبي بكر بن صدقة، ولكن أغلب هذه الكتب للأسف لم يبق منها إلا أسماؤها.







عُرفت مدينة حمص بمدينة ابن الوليد نسبة إلى القائد الإسلامي خالد بن الوليد سيف الله المسلول الذي سكن فيها أواخر حياته ودُفن في المسجد الذي عُرف باسمه فيما بعد ويدعوه أهل حمص تحبباً جامع سيدي خالد وفي حرم جامعه يقع الضريح الذي يضم رفاته ويعود تاريخ تشييده إلى عهد الملك(الظاهر بيبرس) وتقول إحدى الكتابتين المنقوشتين على الضريح الخشبي (بسم الله الرحمن الرحيم، أُمر بإنشائه على حرم تربة سيف الله صاحب رسول الله **r** خالد بن الوليد **t**).



ويُنسب بعض هذه الأضرحة إلى الأولياء الذين صوَّرهم المعتقد الشعبي في مختلف العصورعلى أنهم الواسطة بين الإنسان وخالقه وتلك الفكرة تماثل فكرة الوساطة القائمة فعلاً في المجتمع التصاعدي و" ليس من المغالاة القول بأن المعتقد الشعبي يؤدي إلى الاعتراف للأولياء بسلطان فعلي خارق لا يدانيه سلطان ولا تغرب عن قدرتهم معضلة، ولا يشذ عن حولهم شيء في الحياة أو الطبيعة وهذا يذكّرنا بالتعدد في القوى المسيطرة الخفية، ويدلنا على أن هذه الناحية من معتقدهم لم تزل تفوح بالوثنية "[١].

ويُدعى الأولياء في الأوساط الشعبية بـــ "رجال الله" وهي تسمية موغلة في القدم منتشرة في الأساطير الكنعانية والرافدية والمصرية، ويتكرر هذا التعبير على الألسنة في الدعاء كثيراً كقولهم: "يا الله.. يا رجال الله" لاعتقادهم السائد بأن دعاء الولي مستجاب وأن روحه تظل خضراء بعد وفاته وقادرة على التلبية، ولذلك "يسعى الناس لاسترضاء أرواح الأولياء بالأضاحي والقرابين المختلفة وحين تصيبهم شدة أو نائبة يهرعون إلى مزار الولي مستنجدين به لحظوته عند الله"[٢].

وفي مدينة حمص العديد من هذه المزارات التي يلجأ إليها الناس ومنها مزار الولي عز الدين أبو حمرة في قرية عز الدين شرق حمص ومزار العبريني بالقرب من قرية زيدل شرق حمص أيضاً وغيرها.

وتتلخص الطقوس التي يمارسها أهل حمص في هذه المزارات في أداء العبادات والوفاء بالنذور وطلب البركة والشفاء حيث يذهبون إلى هذه المزارات للحصول على البركة التي تشع من المكان المقدس لكل شخص يتصل به أو

---

(١) الأدب الشعبي، أحمد رشدي صالح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١/ ٢٠٠٢ ص ١٤٨.

(٢) الروح الأخضر – احتفالات الخصب في العادة والمعتقد، محمود مفلح البكر، دار الحضارة الجديدة بيروت، ط١ / ١٩٩٢ ص ٣٤.

يمر بيده على الستائر والضريح والبناء،كما اعتاد الناس في هذه المدينة على إيداع ممتلكاتهم المنقولة لتكون في حِمى الولي، أما الممتلكات غير المنقولة مثل المحاصيل في الحقول فإنهم يضعونها "بوجه الولي" أي يعلنون أنها تحت حمايته فلا يجرؤ أحد على مسها أو التعرض لها، ومن الممارسات الشعبية في المزارات ذات الصبغة السحرية ربط الخرق بنوافذ المزار وأشجاره و"تهدف هذه الظاهرة إلى إثبات زيارة الإنسان للمقام وتذكرة الولي بالزائر ورغباته "(١) ويربط المريض مثلاً الخرقة ويقول: "رميت عليك حملي والله" وهذا النوع من الممارسة الشعبية يسمى بالسحر الاتصالي إذا أن كل شيء كان على اتصال بشخص ما أو كان له به علاقة سوف يستمر بحمل العلامة مع ذلك الشخص الزائر وأمله بالشفاء وبمرور الوقت تكتسب الخرق شيئاً من قوة الولي وتنقلها للمريض حسب اعتقاد العامة في حمص. والكثير من الناس يذهبون لزيارة أولياء الله في مزاراتهم طالبين الشفاء وواعدين الولي بتقديم أضحية إذا منّ الله عليهم بالشفاء وقد يأخذون شيئاً من الزيت أو القماش أو الماء أو الحجارة من المزار أو مما يجاوره ويستعملون كل ذلك كوسائل للحصول على الشفاء، وقد يذهب بعض الناس ومعهم أحد المتهمين بارتكاب ذنب ما ليقسم اليمين أمام المزار وفي ذلك تأكيد للمتهم بأن الولي سيتسبب في إيذائه إذا كان كاذباً، ومن نصوص الإيمان الشعبية التي كان يؤديها المتهم في المزار قولهم " والله ومحمد رسول الله – والله وما أعز من الله، وحياة هالعود والرب المعبود والنبي داهود – هكذا تُلفظ – والصليب الحي، وحق القبلة المحمدية وحق هالكنيسة والساكنين فيها، والكعبة والمهد الشريف والمصحف ولحية النبي وحق عيون هالشمس المقربة لطاعة الله وحياة الماي الجارية والسماوات العالية وحياة هالشجرة التي تشرب من عرقها وتسبِّح ربها".

---

(١) إحياء التراث الشعبي، نمر سرحان، منشورات دار فيلادلفيا، عمان الأردن، دون تاريخ نشر ص ٩٥.

الفصل السابع

عادات تقديم النذور والقرابين

النذر هو "عقد" إذا جازت اللفظة أو "وعد" بين العابد والمعبود يقدم الأول قرباناً للثاني لاستبعاد سوء أو لكسب عطف واسترضاء، وجاء في معاجم اللغة " نذر الشيء نذراً ونذوراً: أوجبه على نفسه. يُقال نذر ماله لله ونذر على نفسه أن يفعل كذا "[١] والنذر ما يقدمه الإنسان لربه أو يوجبه على نفسه من صدقة أو عبادة أو نحوهما، وقد عرف الإنسان النذور والقرابين منذ زمن سحيق ولعل أول إشارة وردت عن النذر والقربان في قصة قابيل وهابيل حينما قدما نذرين (وأتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربّا قرباناً)[٢] وكانت النذور والقرابين طقساً معروفاً عند الساميين عموماً، وتروي الأساطير السامية أن كل أبطال الطوفان كانوا قد قدموا الأضاحي والقرابين للآلهة وكلنا يعرف أن المصريين القدماء كانوا يلقون في النيل أجمل فتاة في مصر كنوع من القربان واتقاء لفيضان النيل أو ثورته عليهم، و" في الجزيرة العربية كانت النُذر والأضحيات تُقدم للأصنام المتعددة من اللات والعزى (أساف ونائلة) وود ومنى ويفوت وبعل والأشجار والنار،

---

(١) معجم الإرشاد ، خليل توفيق موسى ، دار الإرشاد للنشر، ط /١ / ٢٠٠١ ص ٥٩٦ .

(٢) (سورة المائدة الآية / ٢٧/).

وتذهب الروايات المتأخرة عن عبد المطلب جد الرسول محمد r إلى نسج روايات عن محاولته إيفاء النذر على طريقة إبراهيم، وقد كان نذر أن ينحر أحد أبنائه عند الكعبة إذا رُزق بعشرة من الذكور "[1] ولا تزال عادة النذر أو تقديم الأضحية قائمة في بعض معتقداتنا العربية، والمقصود بالنذر حسب المفهوم الإسلامي التقرب إلى الله ولكن الكثير من النذور عادة تكون مشروطة بتحقيق أمر ما لصاحب النذر وصور النذور عديدة منها العينية كالذبائح والمأكولات والشموع والسجاجيد والحصر وأدوات النظافة أو قد تكون طقوسية كأن ينذر الشخص صوماً أو صلاة لله وهناك صور أخرى كأن ينذر الشخص أن يكنّس ضريح أحد الأولياء لمدة معينة أو ينذر تقديم خدمة معينة لزوار هذا الضريح كأن يسقيهم ماءً أو يقدم لهم طعاماً، ولا ينذر أهل حمص نذورهم لأولياء الله الأموات فحسب بل وفي نفس الوقت غالباً ما ينذرون للمشايخ والقائمين على خدمة هؤلاء الأولياء. حيث يقول أحدهم نذر علي لأقدم كذا وكذا إذا شفي ابني المريض أو نجح ابني الذي يدرس أو تزوج وقد تكون الفدية عند بعضهم أن يقوم المزارع بذبح ذبيحة فداء عن ماشيته أو زرعه أو حين ينتهي من بناء مسكن جديد فهُم يعتقدون أنّه ليس من الخير لهُم أنْ يَسْكُنوا البيت الجديد قَبْل أنْ يَذْبَحوا الذبيحة على عتبة الباب، وأنْ يَقْرأوا قصة المولد النبوي فيه، وذلك تَبَرّكاً وتقرّباً إلى الله تعالى وتفاؤلاً..وبعد الانتهاء من إنْشاء أساس البيت، يذبحون ذبيحة كتقدمة للأرواح التي تسكن المكان، ويسمونها "ذبيحْة الأساس"..أما عادة غمس الأكف في دم الضحية وطبعها على حائط الضريح أو غير ذلك فلها تفسيرات كثيرة في حمص فهناك من يعتبرها مجرد علامة للذكرى أي أن يذكر مقدم الضحية بزيارته ووفائه بنذره أو إذا كانت الضحية سابقة على

---

(١) قصص العرب، ج١، تأليف إبراهيم جاد المولى البجاوي، القاهرة-١٩٣٩، ص ٧٨.

تحقيق الطلب فتكون تذكرةً للولي بألا ينسى تحقيق رغبة الزائر التي سأله إياها، أما تلطيخ "عتبة بيت " صاحب الضحية أو جدار بيته بدم تلك الضحية فيهدف حسب اعتقاد العامة إلى نقل البركة إلى بيت ذلك الرجل لأن الضحية ودمها ملك للشيخ (الولي) ولصق جزء منها على البيت فيه استعارة لبركة ذلك الشيخ، كما أنها قد تعني امتداد قوة الشيخ وحمايته لتشمل أهل البيت وتدفع عنهم الشرور والأمراض وتحميهم من الأضرار المختلفة [١].



(١) علم الفولكلور الجزء الثاني، د محمد الجوهري، دار المعارف القاهرة، ط١/ ١٩٨٠.

الفصل الثامن

الخضر أبو العباس.. أسطورة الزمان والمكان

(الخضر أبو العباس) شخصية دينية أُحيطت بكثير من الغموض والغرابة مثلما لم تُحطْ شخصية أخرى في التاريخ الإنساني، ولعل جزءاً من غرابة هذه الشخصية وغموضها نابع من كونها شخصية مشتركة بين الديانتين الإسلامية والمسيحية، فـ(الخضر) لدى الطوائف المسيحية هو(مار جرجس القديس)

وقلما يخلو بيت من بيوت الريف السوري من لوحة شعبية تمثل صورة لـ (مار جرجس) وهو يطعن برمحه التنين الأسطوري. ويقول (الطبري) أن (جرجس) فيما ذُكر كان عبداً صالحاً من أهل فلسطين ممن أدرك بقايا من حواريي عيسى بن مريم، وكان تاجراً يكسب بتجارته.."([١])

ويقال بأن الخضر هو (الياس) ويروى عن (ابن عباس) أنه قال، قال رسول الله ﷺ: الخضر هو (الياس) وفي هذه الحال فإنه هو المعني في القرآن الكريم بقوله تعالى (وان الياس لمن المرسلين..) وفي قوله تعالى (وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين).

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، محمد بن جرير الطبري ، محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة دار المعارف.

أما المسلمون فينظرون إليه على أنه العبد الصالح الذي قال الله عنه لسيدنا موسى (عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلّمناه من لدُنا علماً) التقى سيدنا موسى بهذا الرجل وحدث بينهما ما جاء في سورة الكهف من أمور خارقة للعادة ثم عبَّر هذا العبد الصالح عن فعله بقوله: (وما فعلته عن أمري).

اختلف الناس حول هذا الرجل: ما اسمه، هل هو نبي أم ولي أم رجل صالح من رجال الله، ولم تحدد الآيات القرآنية اسمه صراحة، ولم يرد ذكره بهذا الاسم إلا لدى العلماء الذين انقسموا في معرفة شخصيته، هل هو حي أم ميت؟. قال البعض أنه ما زال حياً، وأنه طيار في الجو وأنه يحضر عند ذكر اسمه. ولذلك فإن بعض المتصوفة إذا ذكروا اسمه يقولون: (وعليكم السلام ورحمة الله) فإن سئلوا أجابوا: (هذا هو الخضر حضر وألقى علينا السلام!!).



ورأى جمهور من العلماء وهم الأكثرية أن العبد الصالح قد مات. واستدلوا على ذلك بآيات من القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى وهو يوجه كلامه لرسول الله r (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد فإن مت فهم الخالدون)[١].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية / ٣٤ /.

وهذا كلام صريح ليس فيه غموض، فالله تعالى لم يجعل لأي إنسان حياة دائمة وإنما هناك عمرمحدد، ووقت معلوم ينتهي فيه أجلُ الإنسان، ولو أن الخضر حي لكان سيدنا محمد r أولى بالحياة لأنه رسول ونبي ومصلح اجتماعي وقائد عظيم جاء لإصلاح الدنيا وتهذيب النفوس.

الخضر وماء الحياة

في الموروث الشعبي الحمصي الكثير من الصور والمظاهرالتي تدل على الحضور الرمزي لهذه الشخصية في حياة الناس، إذ يعتقدون أن الخضر يقضي حاجة كل من يلتجئ إليه أو يناديه أو يستغيث به، وهكذا فانه يُبرئ المريض من الأسقام – بعون الله - ويساعد الذي سقط حمل دوابه في المناطق الخالية من السكان والمارة، ويأخذ بيد من أضل الطريق في المناطق البعيدة، ويكون عوناً لصاحب كل مكروه...إلخ و"يعتقد العامة في سورية ولبنان وفلسطين بأن الخضر حي يرزق –وسبب ذلك في اعتقادهم عائد إلى أن الخضر قد شرب من "نبع الشباب" الواقع بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، كذلك يعتقدون أن هناك عيناً موجودة في آخر الدنيا، ومن يشرب منها فإنه سيخلد وتسمى هذه العين " ماء الحياة " وهم يعتقدون أن الخضر " أبو العباس " قد شرب من عين ماء الحياة فظل حياً خالداً وقيل " أنه بلغ مع (ذي القرنين) نهر الحياة، فشرب من مائه وهو لا يعلم، ولا يعلم به ذو القرنين ومن معه "[(١)] ويذكر (النيسابوري) في كتابه (عرائس المجالس) نقلا عن روايات مختلفة لأشخاص مختلفين رووها أن الخضر كان في زمن (افريدون) الملك ابن القباء (على قول عامة أهل الكتب الأولى) أو أنه كان

---

(١) المعتقدات الشعبية في التراث العربي، تأليف حسن الباش ومحمد توفيق السهلي إصدار دار الجليل، دمشق ط١ بلا تاريخ نشر ص ١٨٤.

على مقدمة ذي القرنين الأكبر الذي كان في زمن (إبراهيم) وهو الذي قضى ببئر اليسع وهي بئر كان احتفرها إبراهيم لماشيته في صحراء الأردن، وقال البعض إن الخضر من ولد من كان آمن بإبراهيم خليل الرحمن واتبعه على دينه وهاجر معه من أرض بابل[1].

وعن أصل الخضر يورد الباحث (عبيدو باشا) في دراسة بعنوان (ميثولوجيا الدفاع عن المدينة)، ما جاء عن محمد بن إسحاق بن يسار عن وهب بن منبه قال: الخضر هو (أرميا بن خلفيا)، وكان من سبط هرون بن عمران وهو الذي بعثه الله نبياً في أيام ناشئة بن أموص ملك بني إسرائيل، ويذهب (الثعلبي) إلى أن قصة أفريدون أشبه بالحق وأولى بالعدل والصدق لان ناشئة بن أموص كان في عصر(كرفشت بن كرارشت) في أيام (بختنصر)، وبين (أفريدون) و(كرفشت) من الدهور والأزمان ما لا يجهله ذوعلم بأيام الناس وأخبارهم[2].

ويقول (الثعلبي) أن هذا الخبر قد صح عن رسول الله في حديث (أبي بن كعب) أن صاحب موسى بن عمران الذي أمر بطلبه وبالاقتباس منه هو الخضر ويتابع الثعلبي معقباً بالقول أن الرسول أعلم الخلق بالأمور الماضية والباقية وموسى بن عمران إنما نبئ في عصر "منوشهر" الملك، وكان منوشهر هذا ملكاً بعد جده افريدون فدل هذا على خطأ من قال بأنه (أرميا بن خلفيا) لأن (أرميا) كان في أيام (بختنصر) وبين عهد (موسى) و(بختنصر) من المدة ما لا يخفى على أهل العلم.

---

(١) عرائس المجالس، أبي إسحاق بن إبراهيم النيسابوري، المكتبة الثقافية ، بيروت، لبنان دون تاريخ الإصدار أو رقم الطبعة، ص ١٩٨.

(٢) دراسة بعنوان ميثولوجيا الدفاع عن المدينة، عبيدو باشا، مجلة الفكر العربي أيلول (سبتمبر) ١٩٨٦.

وأياً تكن حقيقة هذه الشخصية فإن الخضر قد دخل دون أدنى شك في عقيدة المسلمين من أوسع أبوابها، باعتباره قد تعلم من لدن الله علماً، ولهذا صاحبه النبي موسى في رحلته المشهورة في سورة الكهف وبهذا رفعه الله إلى مرتبة الأنبياء وربما إلى أكثر من ذلك.

ليلة المحيا وخميس الخضر

ولعل الحضور الرمزي لشخصية الخضر ليس مقتصراً على مدينة حمص بل شمل الكثير من المدن السورية في صور وأشكال متعددة، منها الطقوس الاحتفالية الخاصة أوالمعتقدات أو التعابير أوالألفاظ المنطوقة، ففي مدينة درعا إلى الجنوب من دمشق يعتقد الناس أن الخضر مدفون إلى الشمال من مدينتهم بــ (١٢ كم) تقريباً لذلك يحتفلون كل عام بما يسمونه (عيد الخضر) ويقومون بذبح الخراف عند مقامه، كما جرت العادة بأن تضع الفتيات خِرقاً حمراء أو خضراء على القبر لتأتي فتيات أخريات في اليوم التالي فينزعن الخرق الموجودة، ويضعن خرقاً جديدة ثم تنفرد كل واحدة بمزقة من الخرق التي أصبحت مباركة حسب اعتقادهن لتعلقها بمنديلها الذي ترتديه وتتناقل الفتيات عند زيارتهن أهزوجة تقول:

يا خضر جيتك زايرة

وأنا بأموري حايرة

كل البنات تجوزن

وأنا ظليت بايرة

وفي مدينة دير الزور يحتفل الأهالي هناك بليلة النصف من شعبان التي يسمونها (ليلة المحيا) على ضفاف نهر الفرات من خلال تطويف الشموع والاحتفال بإرسالها طافية على شط الفرات مع أمنية أو وعد أو أمانة، وهي

عادة تراثية قديمة مأخوذة في الأصل من العراق، ارتبطت بالخضر أو القديس جرجس كما يعرفه المسيحيون الذي يلقبونه بسلطان الماء لأنه يعيش في النهر ولا يخرج إلى البر ولذلك يقدمون له الشموع ليستضيء بها وليشفع لهم مقابل ذلك، ويعتقد بعض الناس أن هذا الموروث الشعبي هو تكريم للخضر أبو العباس الذي يحظى بحضور رمزي خاص في منطقة الجزيرة السورية.

ويُحتفل بالخضر في مدينة حماة في (خميس الخضر) وهو عيد قديم يحييه المسيحيون والمسلمون على حدٍ سواء، حيث يجمع الأطفال باقات الزهور ويضعونها في أوعية فيها ماء، ويطوف الأطفال الذين ليس لديهم زهور ليلاً على البيوت ليجمعوا زهورهم وهم يردَّدون الأناشيد الخاصة بهذا اليوم، وفي الصباح يستيقظ الأولاد ويغسلون وجوههم بماء الزهور، ثم تستعد الأسر للقيام بنزهات نحو البساتين حاملين معهم الأطعمة والأشربة ليقضوا يومهم في فرح وهرج وانشراح.

أما في حمص فهناك ما يسمى أسطورة (الخضر أبو العيون) وهي أسطورة موغلة في القدم ترتبط بمزار له بناء حجري صغير في حي الفاخورة بالقرب من حي بستان الديوان، وكان يُسمى الشيخ خضر ثم حرف إلى الخضر وعُرف بالجواني تمييزاً له عن مقام الخضر الخارجي، أما تسمية أبو العيون فقد جاءت من الاعتقاد الشعبي السائد بقدرة المزار على شفاء أمراض العيون.

و"كانت طقوس زيارة مقام الخضر للاستشفاء تتم بإحضار زجاجة صغيرة من الزيت وكسرها على حجر قد ثقب من وسطه على شكل دائرة وهو يشكل قاعدة نافذة على يمين المحراب و بنفس الوقت هو غطاء لجرن حجري وضع تحت النافذة فيسيل الزيت نحو الجرن. عندها يقوم المريض بمسح عيونه بهذا الزيت، ويدعي البعض أن عيوناً كثيرة كانت منقوشة عليه، أما الآن فتبدو عليه آثار باهتة لما يشبه العيون"[١].

---

(١) حمص درة بلاد الشام، د منذر الحايك - محمد فيصل شيخاني ، دار الذاكرة ، حمص ط١ / ٢٠٠٠.

الفصل التاسع

أسطورة رصد العقارب في مدينة حمص

"حمص مرصودة " عبارة يردّدها أهل هذه المدينة إذا التقى شخصان بالمصادفة وكان أحدهما يفكر في الآخر قبل لحظة اللقاء وثمة وقائع تُروى عن صحة هذه الظاهرة التي يتطلب فهمها دراسة وتحليل عناصر الاجتماع والثقافة الشعبية التي أنتجتها وعلاقة هذه الظاهرة مع نسق الرموز السائدة في الماضي، غير أن للرصد في مدينة حمص قصة أخرى ومعنى مختلفاً عن رصد المصادفات الغريبة، فهذه المدينة تنفرد بين مدن العالم بأن العقارب لا تدخلها ولا تعيش فيها، ويعود ذلك إلى أسطورة شعبية شائعة في المدينة تتلخص في أنه كان لملك من ملوك حمص ابنة وخشي أن يلدغها العقرب فبنى لها برجاً عالياً تقيم فيه، ويأتيها فارس كل يوم بطعامها فيناولها إياه من على ظهر فرسه، وفي أحد الأيام حمل لها الفارس عنباً وكان قد اختبأ بين حباته عقرب فلدغها وماتت الأميرة على الفور، ويُروى أن الملك حزن حزناً شديداً على موت ابنته وقام بعمل رصد ولجم للعقرب ومنذ ذلك الحين خلت المدينة من العقارب.

وقد "بدأت صلة حمص بالعقرب منذ عصور التاريخ السحيقة عندما شخّص الفنانون في منطقتنا العقرب في منحوتاتهم كرمز لربة القضاء والقَسم، ويُعتقد أن عبادة العقرب في المنطقة هي امتداد طوطمي من الرموز القبلية البدائية، وقد استمرت هذه العبادة رغم سيطرة الآلهة الكبرى كـــ " أيل" مثلاً

ويرى البعض أن الآراميين في وسط سورية أخذوا عبادة العقرب عن بلاد الرافدين حيث عُرف فيها منذ فترات أقدم من ذلك "[١].

وظهر العقرب بكثرة في النقوش الآرامية ويحتفظ متحف حمص بجرار آرامية نُقش عليها صف من العقارب وفي الفترة الهلنستية انتشر العقرب كرمز في كثير من المنحوتات التي تعود إلى ذلك العصر في منطقتنا مزاحماً محلياً قوياً للرموز والآلهة اليونانية بينما نجد الشمس المجنَّحة قد حلَّت مكانها في المنحوتات الرومانية وذلك لأن حمص كانت مركز عبادتها وبها معبدها الأكبر ومنها انتشرت على كامل الإمبراطورية ومع ذلك لم تنعدم كلياً رموز العقرب في المنحوتات الرومانية في المنطقة. وخلال العصر البيزنطي ومع انحطاط الذوق الفني للمنحوتات وظهور رموز مسيحية فيها كالصليب ظل العقرب يظهر كـــ "ثيمة" تزيينِّية مع بعض الكتابات المحلية. وفي باحة الجامع النوري الذي يتوسط مدينة حمص القديمة ناووس من الحجر البازلتي الأسود وعلى الناووس نقش يمثل عقربين متواجهين حول كرة كأنها الأرض، ولابد أن النقش يعود إلى زمن أبعد من زمن بناء الجامع وهو تجسيد لإحدى أساطير حمص الحية التي تقول أنها مرصودة ضد العقرب لا تدخلها ولا تعيش فيها وهي أسطورة يؤكدها الواقع الذي لم يُرَ فيه عقرب واحد عبر قرون. ويذهب الخوري عيسى أسعد المتوفى عام ١٩٤٩ إلى تفسير عدم وجود العقارب في حمص بعدم ملائمة تربة المدينة لبيضها وثمة تفسير علمي آخر يرد هذه الظاهرة إلى وجود نسبة عالية من مادة الزئبق في تربة حمص تطرد عنها العقرب[٢].

---

(١) مصدر سابق.

(٢) تاريخ حمص – ج ١ تأليف الخوري عيسى أسعد، مكتبة السائح، طرابلس لبنان ١٩٨٣ ص ٣٥٠ .

أسطورة الطلسم

إذا كانت أسطورة الطلسم في حمص ترجع إلى جذور طوطمية من الرموز الدينية القديمة، فإن من المدهش أنها ظلت صامدة أمام كل ما تعاقب على المكان من معتقدات (وثنية – آرامية – يونانية – رومانية) ولم تتوقف الأسطورة عن الحياة بعد ذلك سواء مع مجيء المسيحية أو دخول الإسلام وذلك لسبب بسيط وهو أن الأسطورة متجّسدة في الواقع، فلا عقارب حقاً في حمص ولعل ذلك في حد ذاته يدعم القول بطيبة الشخصية الحمصية التي هي برغم ما بها من عناد ومباشرة صادمة أحياناً أبعد ما تكون عن أية ملامح للغدر والمؤامرة والالتفاف واللدغ التي تتسم بها العقارب وربما يفسر هذا سبب انتفاء أي وجود يهودي في حمص عبر التاريخ. وقد أكد ظاهرة الطلسم في حمص كل الرحالة والجغرافيين العرب والأجانب الذين أرّخوا لمدينة حمص أو تناولوها في مؤلفاتهم ورحلاتهم ومنهم (ابن الفقيه) في مختصر كتاب البلدان الذي يقول : (ومن عجائب حمص صورة على باب المسجد على حجر أبيض أعلاها صورة إنسان وأسفلها عقرب، فإذا لدغ العقرب إنساناً فأخذ طيناً ووضعه على تلك الصورة ثم أراقه بالماء وشربه سكن وجعه وبرُأ من ساعته، ويُقال أن تلك الصورة طلسم للعقرب خاصة)[١] وقال الأصطخري في كتابه (مسالك الممالك): "مدينة حمص ليس فيها عقارب"[٢] وذكر الشريف الإدريسي في كتابه " نزهة المشتاق " مدينة حمص مطلسمة لا يدخلها عقرب ومتى دخلت على باب المدينة هلكت في الحال ويُحمل من ترابها إلى سائر البلاد فتوضع على لسعة العقرب فتبرأ "[٣].

---

(١) مختصر كتاب البلدان ، ابن الفقيه الهمذاني (ت- ٢٨٩ هـ) نشر دي غويه، ليدن بريل ١٨٨٥.

(٢) مسالك الممالك، ابراهيم بن محمد الأصطخري (ت ٣٤٦ هـ) دار صادر، بيروت، مصورة بدون تاريخ .

(٣) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تأليف زكريا القزويني، بيروت ١٩٧٨.

ويقول القزويني في كتابه عجائب المخلوقات " لا يكاد يُلدغ بها عقرب وإذا غسل ثوب بماء حمص لا يقرب عقرب لابسه ".

وكتب ياقوت الحموي في كتابه " معجم البلدان " ومن عجائب حمص صورة على باب مسجدها إلى جانب البيعة على حجر أبيض أعلاه صورة إنسان وأسفله صورة العقرب، إذا أُخذ من طين أرضها وختم على تلك الصورة نفع من لدغ العقرب منفعة بينة وهو أن يشرب الملسوع منه بماء فيبرأ لوقته[١].

ويؤكد ابن الشحنة في كتابه (الدر المنتخب في تاريخ حلب) أن العقرب لا يقرب ثياب الحمصي وأمتعته مادام عليها من غبار ترابها.

وحين زار الرحالة التركي محمد ظلي أفندي المعروف باسم " أوليا جلبي " مدينة حمص عام ١٦٤٨ م قال: " سمعت من أهل حمص أن فيها مسجداً على بابه رخامة من المرمر نقش عليها صورة عجيبة الشكل نصفها إنسان ونصفها عقرب فإذا ألصقوا عليها عجينة وبعد جفافها ألقوا قطعة منها في النار وبخَّروا الملسوع من العقرب يزول عنه الألم وقد تكرم علي الآغا بقطعة منها حفظتها عندي وبينما كنت أجول في " أراميا " لسع العقرب مملوكاً لي فأسرعت لتبخيره فزال ألمه فوراً، وأشار الشيخ عبد الغني النابلسي إلى رصد العقارب في حمص في كتابه (الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز) بقوله: يقولون في حمص طلسم العقرب إذا أُخذ من ترابها يُحمل منه إلى البلدان حتى أنشد فيها بعض الأحباب: **لي ظبي من حمص هيفا فاتني ربرب.**

طلبت تقبيل خده قال لا تقرب

يلسعك عقرب عذارى قلت: ذا أغرب

أُلسع وفي حمص قالوا: طلسم العقرب[٢]

---

(١) معجم البلدان ، شهاب الدين ياقوت الحموي، دار صادر ١٩٧٧.

(٢) الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، الشيخ عبد الغني النابلسي، دار المعرفة، دمشق ط١/ ١٩٨٩ /

الباب الثالث

رموز ومسميات اعتقادية متفرقة

في محافظة حمص



رموز ومسميات اعتقادية متفرقة

طنة الأذن:

طنين الإذن يحمل معانٍ ورموزاً في المعتقدات الشعبية الحمصية وكان القدماء إذا طنّت أذن أحدهم قال تُرى من ذكرني ويرى العامة أن طنين الأذن اليمنى فأل حسن والشخص الذي تطن أذنه اليمنى يفسر ذلك بأن شخصاً ما يذكره بخير وهم يعتقدون بأن طنين الأذن اليسرى يعني أن شخصاً ما يغتابهم ويذكرهم بسوء ويردّدون في هاتين الحالتين عبارة (خير.. خير إنشاء الله) وفي بعض الأوساط الشعبية إذا طنت أذن أحدهم فإنه يعتقد أن أحداً ما يذكره في تلك الساعة فيضع يده على أذنه ثم لا يزال يذكر أسماء من يظن أنهم ذكروه بعد أن يسد أذنه بوضع يده عليها، فإذا ذُكر الاسم الذي كان يذكره سكت الطنين، فيما يعتقد بعضهم عكس ذلك أي أن طنين الإذن اليمنى شر وطنين الإذن اليسرى فأل حسن. ومن المعتقدات الشعبية المتعلقة بالأذن تشاؤم الناس في الوسط الشعبي السوري من تقبيل الطفل من خلف إحدى أذنيه لأن ذلك في اعتقادهم قد يؤدي إلى موته.

رفة العين:

يعتقد العامة في المجتمع الحمصي أن عين المرء اليمنى إذا رفَّت تنبَّأ صاحبها بحدوث شر، ويقول من تلقائه (الله يعطينا خيرها) وإذا رفَّت العين اليسرى تنبأ بحدوث خير.

حكة اليد:

ومن المعتقدات الشعبية الشائعة في حمص ما يسمى بـــ "حكة اليد" فإذا أحس المرء بحكة في راحة كفه لاسيما اليمنى فتفسير ذلك بأنه سيسلم على شخص ما أو سيقبض مالاً وكان العربي إذا حكته يده قال: أخذُ دراهم، وفي الوسط الشعبي الحمصي يصفون الرجل إذا زرع شتلة فنبتت وزهت بعد وقت قصير نسبياً بقولهم: "إيدو خضرا" لاعتقادهم أن مثل هذا الرجل يده مباركة فيما يخص الزرع والزراعة.

طاسة الرعبة:

من مظاهر الممارسات الخرافية في حمص ما يسمى "طاسة الرعبة" أو "الرجفة" وهي إناء من النحاس ذو شراشيب نحاسية أيضاً وفي وسطه نتوء يوضع فيه الماء النظيف وبه بعض الأشياء الحلوة مثل التمر أو الزبيب ويُترك في الهواء الطلق خاصة وقت السحر إلى قبيل شروق الشمس ويقوم الخائف أو المضطرب بشرب هذا الماء المحلى وأكل ما فيه من تمر أو زبيب، ولا يتوقف أثر هذا الإناء السحري - كما يعتقدون - على شفاء المصاب بحالة الخوف إنما هناك العديد من الأمراض التي يشفى أصحابها إذا ما وضعوا ماء في هذه الطاسة وشربوا منه وغالباً ما تزين هذا الإناء كتابات دينية أو عبارات ذات دلالات سحرية ومنها العبارة التالية:" وبإذن الله تعالى تشفي هذه الطاسة النادرة من السموم كلها وقد جُمع فيها منافع عدة وهي للسعة الحية والعقرب والحمى.. للمطلقة والفرس المعتلة للكلب وللمغص وللشقيقة وللطحال والقوة ولإبطال السحر وللعين وللنظر وللرمد والنزلة والرياح والأرواح والبواسير، للخلط البارد ولسائر العلل "ويُقال أن الجن اعتادت أن تستعمل طاسة الرعبة في الاستحمام، وتذكر إحدى الحكايات الشعبية أن أحد الجان ذهب ذات مرة ليستحم بالقرب من نبع وبعد أن أنهى استحمامه نسي الوعاء السحري بالقرب من النبع واتفق أن مر بالمكان شخص محظوظ ووجد

الوعاء فأخذه، وفي وقت قصير تمكن هذا الرجل من اكتشاف ميزاته، وبمرور الزمن صُنعت نسخ عن الأصل وأثبتت أن لها ميزات الأصل نفسها.

وتدل هذه الحكاية على أن القوة السحرية لا تعود لمعدن الإناء كما يعتقد الكثير من الناس وإنما للكتابات الموجودة عليه والمتضمنة غالباً كلمات من القرآن الكريم وأسماء الله والملائكة والكواكب والنجوم والجمل السحرية وهنا يكمن السبب في أن طاسة الرجفة لا يجوز أن يمسها شخص غير طاهر كما أنها تُلف وتُحفظ في مكان نظيف طاهر وباحترام كبير ولذلك كانت بعض الريفيات يضعن طاسة الرعبة بين الفرش واللحف التي لا تستخدم كي لا يمسها أحد. وإذا اضطر شخص غيرطاهر لنقلها فإنه لا يمسها بل يلفها بقطعة من القماش، وهناك من يعتقد أن هذه الطاسة ربما فقدت بعض قوتها إذا تعرضت للشمس الساطعة وقد ظل الكثير من الحجاج الذين يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج إلى عهد قريب يجلبون معهم طاسات الرعبة من هناك كهدايا ذات قيمة كبيرة.

فك الشكال:

بعض النساء إذا تأخر طفلهن في المشي يربطن قدميه بخيط إلى بعضهما البعض ويذهبن إلى باب الجامع عند انتهاء صلاة الجمعة فينتظرن أول مصلي يخرج فيعطينه طرف الخيط ويقلن له : (فك اشكالو وخود اللي بديالو) فيقطع له الخيط ويأكل حبيبات الزبيب أواللوز التي تكون في حضنه، ويعتقد العامة أن هذا أفضل من أخذ الطفل إلى الطبيب أو اتباع نظام غذائي خاص له وذلك ليستطيع الطفل المشي.

الملح والقرعة السلاحية :

هذه العادة كانت شائعة في قرية دير بعلبة شرق حمص وفي غيرها من القرى المجاورة فبعد إعلان خطبة الفتاة يقوم أهل العريس بتعبئة " قرعة الملح " وهي عبارة عن قرعة سلاحية أي طويلة وكبيرة مفرغة يملأونها

ملحاً في بيت المونة، ويبدؤون باستعمال الملح الموجود في القرعة في الطعام فإذا نفذت الكمية الموجودة في القرعة ولم تصب العائلة بسوء أو نازلة فيكون وجه العروس خيراً عليهم وإذا حصل سوء من وفاة أو مرض أو خسارة مادية في المحصول أو ضياع "أي كارثة" فيكون وجه العروس شؤماً وبعضهم كانوا يلغون الخطوبة(١).

تكريزة رمضان:

عادة قديمة كانت منتشرة بين العامة في حمص تتلخص بأن يقوم الناس قبل حلول شهر رمضان بيوم أو يومين بنزهات عائلية أو جماعية في ضواحي المدينة يجري فيها ما يجري عادة في نزهات الحمصيين في الميماس وعلى ضفاف العاصي من مزاح وغناء ورقص وأكل... الخ.

والأصل في هذه العادة هي وداع متاع الدنيا والاستعداد للدخول في روحانية شهر رمضان،ويلي التكريزة كثير من العادات الموروثة التي تتناول إثبات هلال الشهر الفضيل وما يحيط به من احتفالات في الجوامع لاستقبال الشهر وإنارة المآذن وخروج المسحرين لإعلان بدء الصوم بقرع الطبول.. الخ وفي نهاية الشهر يجتمع مشايخ الطرق الصوفية مع مريديهم في مسجد خالد بن الوليد حيث يقومون بتلاوة الأوراد والأذكار والتهليل والتكبير والمدائح النبوية وتوديع شهر رمضان.

وحام المرأة:

تمر المرأة الحامل في بداية حملها بفترة الوحام وفي هذه الفترة يعتقد الناس في الوسط الشعبي الحمصي أن الحامل إذا اشتهت شيئاً ولم تأكل منه وحكَّت في مكان ما من جسمها فإن الشيء الذي تشتهيه يظهر في مولودها

---

(١) بلدة دير بعلبة نشأة وسكاناً وتراثاً شعبياً، تأليف عبد الرحيم كنعان، مطبعة عكرمة دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٨، ص ٩٠.

في المكان الذي حكَّت فيه، لذلك فإن الزوج أو أهله يحرصون على تأمين ما تشتهيه المرأة الحامل في فترة وحامها كي لا تظهر صورة وشكل ما تشتهيه على جسد مولودها بما يسمونه عادة " شهوة " أو " وحمة " وفي القول المأثور حول طعام الحامل " ما تأكلينه عند الوحام تلاقيه عند الزحام " أي أن الغذاء الجيد للحامل يعينها عند الوضع.

الحبل السري:

ومن المعتقدات الشعبية السائدة في حمص ما يتعلق منها بالحبل السري وهو قطعة لحمية تصل ما بين الجنين عن طريق سرته وجسد أمه أثناء الحمل ويسقط الحبل السري بعد الولادة ببضعة أيام ويعتقد الناس أن الحبل السري وبعد انفصاله عن جسد الطفل ينبغي أن يُلف بخرقة طاهرة وأن يُلقى في باحة مدرسة مثلاً ليصبح الطفل ذكياً أو متعلماً أو يُلقى في مسجد كي يصبح الطفل متديناً تقياً، أو يلقونه في خرج أحد الباعة الجوالين كي يكون الخير والثراء من نصيب هذا الطفل عندما يكبر، وجرت العادة لدى كثير من الناس في الوسط الشعبي الحمصي أن تُطمر "المشيمة" في باطن الأرض ضمن حفرة حتى لا يأكل منها قط أو كلب مما يؤدي إلى كبس الأم أو الطفل أو تصبح المرأة عاقراً، ويُحدد المكان الذي تُدفن فيه وذلك لإخراجها إذا توقفت الأم عن الحمل فيما بعد فتوضع في ماء تستحم به الأم، كما يعتقدون أن الخلاص إذا أكل منه حيوان ما كالكلب والقط فإن الطفل الذي كان في داخل هذا الخلاص سيموت وربما أُصيب بالجنون.

تخطِّي الأطفال وهم ممددون!

من المعتقدات المتعلقة بالطفولة التشاؤم من تخطّي الطفل وهو ممدد على الأرض فإن تخطاه أحدهم أو قفز من فوقه أمروه أن يعيد فشخته بالاتجاه المعاكس كي لا يحدث تأثير مؤذ للطفل وأخف تأثير لذلك هو بقاؤه قصيراً كالأقزام، ويبلغ

التشاؤم أشده في هذه الحال إذا حدث ذلك من قبل شيخ أو أعزب أو جنب وينطبق هذا على المرأة في فترة الحيض، لأنها إن مرّت من فوق الطفل في فترة طمثها أدى ذلك إلى ظهور بثور في جسمه كما يعتقدون.

النهي عن سكب الماء الحار في الليل:

ينهي الناس في الوسط الشعبي الحمصي عن سكب الماء المغلي ليلاً ويستخدمون بعض العبارات والجمل لاسترضاء الجان كي لا يُلحقوا الأذى ببني البشر فإذا أرادت المرأة أن تلقي الماء الساخن في مكان ما ولاسيما في الليل فعليها قبل ذلك أن تردد عبارات من مثل "دستور" أو "دستور يا أسيادنا" أو " دستور من خاطركم " أو " دستور يا حاضرين ".

علاج الثآليل:

كان الناس يعتقدون أن المرء إذا أشار بإصبعه إلى النجوم في الليل وأخذ يعدها ستظهر في يده التي أشار بها إلى النجوم، ويرون أن علاج الثاليل يكون بأن يقوم صاحبها بعد حبات من العدس تساوي عدد الثآليل الموجودة على يديه، ويقوم بعضهم بجلب باذنجانة وثقبها بإبرة ثقوباً بعدد الثاليل ثم يضع الباذنجانة باتجاه القبلة فوق جدار حتى تجف.

أبـو بريص:

أبو بريص: حشرة من الزواحف الصغيرة ذوات الأرجل وهي أصغر من الحردون. كان العامة ينفرون منها ولذلك يقولون " اللي بيقتل سبع أبو بريصات بضربة واحدة بتتكتبلو حجة" وهم يحتقرون هذه الحشرة لاعتقادهم أنها كانت تنفخ لتؤجج النار ضد النبي ابراهيم ويحبون " الشقرقة " الضفدعة لأنها باعتقادهم كانت تبق الماء لتطفئها.

قدسية العدد أربـعين:

في حمص وما حولها أماكن تسمى الأربعين مثل جامع الأربعين الذي يُعتقد أنه يضم قبر أحد الأبدال وفي الجامع المذكور ضريح فوقه لوحة

تأسيسية كتب عليها (الحمد لله رب العالمين هذا مقام أحد الأبدال المنوه عنهم في الحديث التالي (عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الأبدال في الشام وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يسقي بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف بهم عن أهل الشام العذاب) **رواه** أحمد في مسنده، "ومقبرة الكتيب التي يُعتقد أنها تضم قبور أربعين صحابياً من صحابة رسول الله **r**، ومن التعبيرات الشائعة في حمص حول هذا العدد قولهم " اللي بيصلي أربعين ليلة قيام الليل بيطلع على وجهه كنـــز و"اللي بتغسل أربعين أحد متتالية" بتزنكل " – أي تصبح غنية" ومن اعتقاداتهم " اللي بيدخل على بيت المي حفيان بتم إجريه نجسة ٤٠ يوماً ومن أمثالهم: من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم وفيهم"و "البدوي "أخذ ثاره بعد أربعين سنة وقال لحاله استعجلت" وهناك أربعينية الميت وأربعينية النفاس وأربعينيات الشتاء والصيف (المربعانية) وصوم الأربعين عند الطوائف المسيحية

* * *

هذا ما استطعت أن أجمعه من عادات ومعتقدات في محافظة حمص وهو عمل وإن لم يكن جامعاً مانعاً – ولكنه مساهمة مني في جمع تراث اندثر بعضه ويمكن أن يندثر كله.. راجياً من القارىء الكريم أن يعفو عن الزلات ويتجاوز عن الهنّات التي يمكن أن يعثر عليها بين سطور الكتاب فالكمال لله وحده والله من وراء القصد.

المراجع والمصادر

المصادر:

القرآن الكريم

الحديث الشريف

- عجائب المخلوقات، القزويني
- معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت الحموي، دار صادر ١٩٧٧
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، محمد بن أحمد المقدسي، تحقيق غازي طليمات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٠
- الإشارات إلى أماكن الزيارات – عثمان بن أحمد السويدي الدمشقي الهروي، تحقيق بسام عبد الوهاب الحلبي، مكتبة الغزالي، دمشق ١٩٨١
- تاريخ الرسل والملوك، محمد بن جرير الطبري ط محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة دار المعارف
- رحلة الخياري
- المقاصد السنية في الأحاديث الإلهية، أبي القاسم بن بلبان، تحقيق محي الدين مستو و د محمد العيد الخطراوي، دار ابن كثير دمشق –بيروت ط ٢ ١٩٨٨
- عرائس المجالس، أبي إسحاق بن إبراهيم النيسابوري، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، دون تاريخ الإصدار.
- الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز، الشيخ عبد الغني النابلسي، دار المعرفة، دمشق ط١ ١٩٨٩

المراجع:

المنجد في اللغة والأعلام - الأب لويس شيخو، ط بيروت ١٩٦٠

- العين وتأثيرها علي ضوء العلم والدين تأليف عبد الرزاق كيلو، الناشر دار المحبة دمشق، ط١ ١٩٨٧

- تاريخ حمص – ج ١ تأليف الخوري عيسى أسعد، مكتبة السائح، طرابلس لبنان ١٩٨٣

- جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، أحمد وصفي زكريا، دار الفكر، دمشق ط٢ ١٩٨٤ م

- معجم الإرشاد إعداد خليل توفيق موسى، دار الإرشاد، حمص/ط١ ٢٠١

- قاموس الصناعات الشامية، محمد سعيد القاسمي، تحقيق وتقديم ظافر القاسمي، معهد الدراسات العملية العليا في باريس ١٩٦٠

- دراسات في تاريخ الرستن وضواحيها، إعداد وتحرير د منذرالحايك، دار طلاس/ دمشق ط١ ٢٠٠٤

- نبش الغراب، تأليف محمد مستجاب، سلسلة كتاب العربي المجلس الوطني للآداب والفنون الكويت ٢٠٠٥

- ديوان ديك الجن الحمصي، تحقيق عبد المعين الملوحي، محي الدين درويش، دار الملوحي، حمص ط١ / ١٩٦٠

- الزواج عند العرب، عبد السلام الترمانيني سلسلة عالم المعرفة الكويتية / العدد ٨٠ أغسطس ١٩٨٤

- التراث الشفوي في الشرق الأدنى، د نبيل جورج سلامة – إصدار وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٦

- صور من الحياة الاجتماعية عند البدو: تأليف خالد عواد الأحمد: الناشر دار الإرشاد، ط ١ / حمص ٢٠٠٨

- السحر في مصر القديمة، تأليف واليس بدج، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن ، الناشر مؤسسة الانتشار العربي وسينا للنشر بيروت ط١ / ٢٠٠١

- أمثال حمص الشعبية،جورج فارس رباحية إصدار خاص، حمص ط١ ٢٠٦

- مخطوط خميس القدس في مدينة حمص (خميس المشايخ) تأليف محمد غازي حسين آغا

- ملامح الدراما في التراث الشعبي، هيثم يحيى الخواجة، دار الحياة ومؤسسة الخليل التجارية، بيروت – لبنان ط ١ / ١٩٩٧

- حياة دمشق اليومية كما صورها المعاصرون أواخر العهد العثماني، الدكتورة خيرية القاسمية، مطبعة الداودي، دمشق ط١/ ٢٠٠٠

- أعياد الربيع القديمة في حمص، جان إيف جيلون، ترجمة زياد خاشوق، إصدار خاص/ حمص ١٩٩٨

- الأدب الشعبي، أحمد رشدي صالح، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١/ ٢٠٠٢ ص ١٤٨ .

- إحياء التراث الشعبي، نمر سرحان، منشورات دار فيلادلفيا، عمان الأردن، دون تاريخ نشر .

- الروح الأخضر – احتفالات الخصب في العادة والمعتقد، محمود مفلح البكر، دار الحضارة الجديدة بيروت، ط١ / ١٩٩٢.

- حمص درة بلاد الشام – تأليف د. منذر الحايك – محمد فيصل شيخاني – دار الذاكرة حمص ط أولى ٢٠٠٠.

- على جناح الذكرى، تأليف رضا صافي، وزارة الثقافة / دمشق ط ١ ١٩٨٦ .

- المعتقدات الشعبية في التراث العربي، تأليف حسن الباش ومحمد توفيق السهلي ـــ إصدار دار الجليل، دمشق ط١ بلا تاريخ نشر .

المجلات والدوريات:

- مجلة الحداثة، المجلد السابع العددان ١٣و ١٤ شتاء ١٩٩٦، دراسة بعنوان (المعتقدات الشعبية في السحر)، بقلم سيدة رشاد حسن.

- مجلة الحداثة السنة الثالثة شتاء ١٩٩٧ العددان ٢١و٢٢، دراسة بعنوان " الوجود البشري والزمن في الخطاب الثقافي الشعبي، بقلم زاهي ناضر.

- مجلة الرواد، دراسة للباحث نجم الدين بدر منشورة في اليونان .

- مجلة التراث الشعبي، العدد الخامس – السنة الحادية عشرة - ١٩٨٠ دار الجاحظ للنشر بغداد، دراسة بعنوان الغول: محاولة لاستقصاء الاعتقادات الشعبية العربية حوله – عيسى الجراجرة – .

- مجلة الفكر العربي ايلول (سبتمبر) ١٩٨٦ دراسة بعنوان ميثولوجيا الدفاع عن المدينة، عبيدو باشا .

بالإضافة إلى العديد من اللقاءات التوثيقية التي أجراها المؤلف ومنها:

لقاء أجراه المؤلف مع الأديب الراحل وليد قنباز عام ٢٠٠١.

لقاء أجراه المؤلف مع الباحث محمد فيصل شيخاني بتاريخ ١٠ / ١٢ / ٢٠٠٧ .

الفهرس

الصفحة



خالد عواد الأحمد

- كاتب وصحفي من حمص، ينشر في العديد من المجلات والصحف العربية منذ عام ١٩٨٣م.

- له العديد من الكتب المطبوعة ومنها:

(غواية الأسئلة – مواجهات في الفكر والحياة والإبداع) و(صور من الحياة الاجتماعية عند البدو) و(معالم وأعلام من حمص).

- وللمؤلف العديد من الكتب المخطوطة ومنها:

(أوابد وإبداعات حضارية من سورية) و(زمن الكتابة – زمن الإنصات – حوارات في الفكر والحياة والإبداع) و(مهن وصناعات تراثية من حمص) و(غريب اليد والوجه واللسان – صور من التراث الشعبي في حمص) و(مشاهير علماء حمص في القرنين الثاني والثالث عشر الهجريين).

الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة






«عادات ومعتقدات في محافظة حمص» هو كتاب يتناول بعض جوانب التراث الشعبي في مدينة حمص وريفها فيما يتعلق بالعادات والتقاليد التي اندثر بعضها ولا زال بعضها الآخر يجاهد في البقاء كمظاهر العرس الشعبي واحتفالات الأعياد الدينية والشعبية وختمة القرآن الكريم وطقوس الاستحمام في حمّامات السوق والعادات المتعلقة بالمأكل والمشرب ووسائل التسلية وصبحيات النساء ومظاهر الطرافة والنكتة التي اشتُهرت بها هذه المدينة عبر العصور، كما يتناول الكتاب بعض المعتقدات اليومية المتعلقة بالتشاؤم والسحر والخرافة وأساليب تخويف الأطفال في التراث الشعبي واعتقادات الحجر، وتلك المتعلقة بزيارة أضرحة الصحابة ومقامات الأولياء وعادات تقديم النذور والقرابين والحضور الرمزي لشخصية الخضر (عليه السلام) في مجتمع مدينة حمص وريفها وظاهرة الطلسم (رصد العقارب).

كما يتناول الكتاب أيضاً بعض الرموز والمسميات الاعتقادية المتفرقة كـ«طنة الأذن» و«رفة العين» و«حكة اليد» و«طاسة الرعبة» و«الحبل السري» و«وحام المرأة» و«تكريزة رمضان» وغيرها من المعتقدات التي تجد صداها في حياتنا اليومية وفي أساليب تفكير الناس بشكل أو بآخر، ولذلك نأمل أن ينجح هذا الكتاب في أن يحفّز القراء الكرام على أن يثقوا بأصالة حياتهم وثراء ميراثهم، وأن يجدوا فيه ما يصلح لأن يواكب الحاضر ويمتد إلى المستقبل.





www.syrbook.gov.sy
مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ١٢٠ ل.س أو ما يعادلها